قال ومازالت نبرة عدم التصديق فى صوته : ربما كنت مخطئا .. الأمير رجل قومى أنت سمعته بنفسك يتحدث . كيف؟ له أصدقاء من كل الأحزاب العربية ، بل ومن منظمة التحرير نفسها !..

– اسمع يايوسف . من أسبوع وأنا لا أفعل شيئا غير البحث فى موضوع الأمير . اتصلت بكل من أعرف هنا ، حتى بالعاملين فى السفارات العربية الذين أحاول طوال الوقت أن أتجنبهم، وذهبت إلى البورصة ، وتحدثت مع محررى الاقتصاد فى الصحف ، ومع تجار الخيول وحتى مع محررى أبواب سباق الخيل!.. لو كانت عندى ذرة من الشك لما تحدثت إليك .

ظل صامتا فترة ثم قال : ولكن لماذا يفعل هذا؟.. عنده مال قارون ..

– هذا سؤال آخر لا أعرف جوابه . ولا أعرف أيضا لماذا يريد هذه الصحيفة الملعونة ولا لماذا يريدنا معه . كل ما أعرفه أننى لم أطمئن إليه من أول لقاء .

عبارة قالها عن عبد الناصر وعن الأمريكان أيقظت فى نفسى شيئا، وما عرفته عنه بعد ذلك أكد حدسى . ربما كان يريد الصحيفة بالفعل بسبب طموحه للحكم ورغبته فى أن يحارب ولى العهد .. وربما تكون المسألة أكبر من ذلك لا تعرفها أنت ولا أعرفها أنا . هو على أى حال ذكى جدا وغنى جدا وطموح جدا . ومقتنع إلى أبعد حد . أمثاله لا يغيبون عن أعين الكبار الذين يخططون ..

ولكننى أمسكت لسانى ولم أكمل ما كنت أفكر فيه وقلت بدلا من ذلك :

– هو باختصار يريدنا خاتمين فى إصبعه لكى يفعل شيئا لا نعرفه .

ولم يكن يوسف يتابعنى وقتها كان يتمتم :

– الأمير شريك دافيديان .. إذن لو عملنا مع الأمير فكأننا نعمل مع دفيديان .. ودافيديان دفع التبرع لإسرائيل .

ثم ضحك بمرارة وهو يقول : أنت سددتها فى وشى ياأستاذ !

– كيف لا سمح الله ؟

فقال دون أن يحول وجهه نحوى وكأنه يكلم نفسه : ماذا أفعل الآن؟ .. أبقى

هنا وأعيش طباخا وأموت طباخا أو قهوجيا؟ أرجع إلى البلد لأعيش عاطلا؟ هنا على الأقل أرسل مبلغا لأبى فى كل شهر . أهج فى دنيا الله؟ .. أين؟.. وهل سيختلف الحال فى أى مكان؟ .. ماذا أفعل؟

قلت وكأنى أدافع عن نفسى : اسمع يايوسف أنا لم أطلب منك أى شىء. كل مافى الأمر أنك ألححت أن أضع مشروع هذه الصحيفة والآن أريدك أن تعرف لماذا لا أستطيع ذلك .

ثم أكملت وقد تذكرت شيئا : على أى حال لى عندك طلب وحيد . أنا لا أعرف كما قلت لك إن كان الأمير يعمل بمفرده أم أن وراءه أجهزة . وكل ما أطلبه منك أن يبقى هذا الكلام بيننا ..

وضحكت ضحكة صغيرة وأنا أقول : لا أريد أن تصدمنى سيارة فى الطريق أو أن يطعننى مجهول بسكين وأنا عائد إلى بيتى فى الليل ..

قال بطريقة آلية : لا سمح الله !

فأكملت : أنا أمزح بالطبع ، ولكنى أقصد أننى أفضل أن يبقى هذا الكلام بيننا ، وبعد ذلك فأنت حر . يمكن أن تواصل العمل مع الأمير لو شئت .

أطلق ضحكة من مقطع واحد كأنها زفرة: تظاهرت ضد السادات وحكم علىّ بالسجن وهربت من بلدى ومن أهلى لأنى كنت أعتقد أنه يفرط فى مستقبل البلد وضاع مستقبلى أنا الفقير فى المبادىء ، بينما الكبار والأغنياء .. أهلا يا مبادىء!

قال ذلك وأراد أن يقوم وفى وجهه هم وانكسار فأمسكت معصمه ليظل جالسا وقلت : لماذا تيأس بسرعة؟.. لم تنته الدنيا لأنك لن تعمل فى صحيفة الأمير . اكتب إن كنت تريد وحاول أن تنشر ما تكتبه فى الصحف التى تصدر هنا أو أرسلها أيضا إلى صحف البلاد العربية .. لا يعجبك أن تكون طباخا أبحث عن عمل آخر وحاول أنت أيضا أن تكون غنيا وأن تكون قويا ..

شعرت وأنا أتكلم بأننى غير مقنع على الإطلاق ولكننى أكملت مع ذلك : أرجوك

يايوسف . لا تجعل الدنيا تهزمك كما هزمتنى .

لم يعلق بشىء على كلماتى التى كانت تخرج متدافعة ولكنه تمتم بعبارات شكر تقليدية وهو ينصرف بخطى سريعة ناحية المطبخ، وتطلعت إيلين ناحيتى من أقصى المقهى بنظرة مستفهمة فحولت بصرى .

خرجت من المقهى مسرعا وأنا ألوح بالتحية لإيلين عن بعد .

كان هناك متسع من الوقت قبل أن ألتقى ببريجيت فى مقهانا فى الظهيرة . قررت أن أذهب إلى البيت وأن أرتاح هناك قليلا قبل الموعد ولكننى بدلا من ذلك قدت السيارة حتى شاطىء النهر وركنتها إلى جوار المقهى ثم رحت أتجول فى الشوارع الهادئة القريبة من النهر . كان الجو باردا والسماء ملبدة بالغيوم تنذر بالمطر ولكنى لم أهتم .

اعتقدت أنى سأنتهى من الموضوع كله!.. أحكى ليوسف ما عرفته ثم أنفض يدى من حكاية الصحيفة ومن الأمير ..أفرغ مرة أخرى للفرح الذى عاهدت نفسى ألا أعرف غيره، فلماذا لم يكن هذا هو ماحدث ؟

ليكن . أنا بالفعل أخطأت . لم يكن من شأنى أن أتدخل فى حياة يوسف ولا فى حياة إيلين ولا أن أشغل نفسى بهذا الأمر . كان يجب منذ البدء أن أعتذر ليوسف بأن صحتى تمنعنى من العمل ثم ينتهى الأمر . ما أهمية ذلك التنقيب الذى انغمست فيه؟ .. أى كسب حققته حين عرفت من هو؟ .. لن تنقذ أنت لبنان من دافيديان ولن تحارب إسرائيل باكتشافاتك . اتفقنا منذ زمن طويل أنك لست مهما فما الداعى الآن لهذه الألاعيب؟.. لن تنقذ حتى يوسف . ارتاع المسكين مثلما ارتعت انت حين عرفت الحقيقة . لم تكن تتصور حين بدأت أنك ستصل إلى هذه النهاية . كنت تريد فقط أن تعرف من هو هذا الأمير حامد ، فإذا كل الخيوط تقودك إلى دافيديان . صحيفة قومية وتقدمية حقا!.. حسبها سموه بدقة شديدة: أطعمه أولا بوهم المبادىء . أعطه الأمل فى أن يرجع صحفيا بالفعل بعد أن أصبح نكرة. دوخه أيضا بأموال لا يحلم بها. برحلات وبدولارات وبمشروعات لا آخر لها.

ثم فى النهاية ضعه خاتما فى أصبعك وحركه كما تريد . مهما كان الثمن فسيتكلف أقل من غيره وسيكون أكثر طاعة . ولكن لماذا ؟.. ما الذى يريده منى بالفعل ؟ .. لماذا أنا ؟..

قادتنى قدماى دون أن أدرى إلى حديقتى السرية الصغيرة. ولم يكن فيها أحد.. جلست مجهدا على أقرب مقعد . كانت الأشجار قد اكتست كلها باللون الأصفر الذى فقد بريقه ونفضت على الأرض أوراقا تغطيها طبقة بنية بلون الصدأ . شعرت بالبرد بعد قليل فقمت وأخذت أمشى بسرعة فى ممرات الحديقة القصيرة المتقاطعة التى تعود دائما إلى نقطة البدء. إهدأ!.. إنس هذا الأمير فى النهاية . ألم تعاهد بريجيت ونفسك أن تتجنب هذه الدنيا؟.. ولكن هذا هو ما نفذته بالفعل . انسحبت داخل جلدى وحاولت أن أنسى كل شىء . حتى مكالماتى مع خالد وهنادى أصبحت شيئا عابرا فى حياتى ، أحرص على ألا تطول . كنت أهرب من كل ما يذكرنى بالصراعات القديمة وبنفسى القديمة . قبلت أيضا أنى أب مهزوم يجب ألا يحارب لكى يسترد ما فقده بالفعل. فلم هذه الحيرة الآن؟ لماذا كان يجب أن يظهر هذا الأمير؟.. هل أصارع - أنا أيضا - خيلا من فوارسها الدهر؟.. من فوارسها الأمير حامد ودافيديان ؟.. - خيلا عربية حقا !

ولكن كفى!.. قلنا إن الحكاية انتهت فلنرجع كأنها لم تكن . فليذهب الأمير ودافيديان إلى أى داهية . فليذهبا إلى النسيان وهذا هو الأهم . فكر فقط فى الفرح الوحيد الذى يمكن أن تفوز به من هذه الدنيا .

قالت إيلين : لا تتعجل نهايته !.. فلا تتعجل النهـــاية . لا تفكر حتى فى أن نهاية ستأتى . بريجيت هناك . من لحم ودم . ليست وهما وليست خدعة . نعم .. نعم..

كنت أفر من الحديقة ، أوشك أن أعدو وأنا فى طريقى إلى المقهى .

ووقفت لحظة ألهث حين رأيت ذلك المبنى البيضاوى الداخل فى النهر . أشعر أن دموعا تريد أن تطفر من عينى .

أية نعمة أن مقهانا مازال قائما هناك!

أية نعمة أنه سيحتوينا معا !

أية نعمة أن أراها هناك ، آتية من آخر الطريق ، تخطو بسرعة كعادتها ، تطأ الأرض بخفة كعادتها ، لا تمشى ، بل تطفو فوق أثير لا يرى . وأنا معك ، أهجر أيضا هذه الأرض الطافحة بشرورها ، لألحق بك ، يرتفع بى حبك إلى هذا الأثير ، إلى تلك البراءة لنهرب معا إلى السكينة ، ولنصنع معا هذا الفرح .

الفصـــل التاسع

هـــذا الكـــهف

كانت تلبس معطفا واقيا من المطر. وجهها يخفى قلقا لايغيب عنى.

إلى جوار نافذتنا المعتادة ساعدتها على خلع معطفها ولم يكن تحته الزى الأزرق. كانت تلبس بلوزة بيضاء فوقها «جيرسى» أزرق بلون عينيها وقد رفعت شعرها خلف رأسها وعقصته كيفما اتفق فتناثرت منه خصل ذهبية صغيرة حول وجهها الذى بدا أقل استدارة.

سألتها ونحن نجلس متقابلين: ألم تذهبى إلى العمل؟

أشارت بيدها إلى الغيوم فى السماء: رحلة سياحية فى هذا الجو؟ اتصل بى المكتب فى الصباح ليقول إنه لاتوجد أفواج اليوم.

– وما العمل ؟

– أدع أن تطلع الشمس!.. ولو أن هذا لن يفيد كثيرا – أوشك الموسم السياحى أن ينتهى على أية حال ولابد أن نفكر فى المستقبل..

كنت أعرف أنها تدبر نفسها بصعوبة بالمرتب الزهيد الذى تحصل عليه من شركة السياحة. لم يكن لديها تصريح رسمى بالعمل ولاعقد مع صاحب الشركة ولكنه كان يجدد لها العمل باستمرار لإجادتها لعدة لغات وقناعتها بالمرتب البسيط. أراحه كثيرا أنها أجنبية ليس لها حقوق فى التأمين أو المعاش فتمسك بها بينما كان يتخلص باستمرار من مواطناته قبل مرور ستة أشهر على عملهن لكى لاتصبح لهن حقوق قانونية. وظلت بريجيت منذ عرفتها تعيش فى حدود مرتبها دون أن تسمح لنفسها بأى ترف، ولم تقبل أيضا شيئا منى. إن دعوتها للغداء مرة فلابد أن ترد دعوتى فى اليوم التالى. وذات مساء اقترضت منى مبلغا زهيدا فوجدت فى الصباح ظرفا فى صندوق البريد وبداخله النقود. لم تستطع الانتظار إلى الظهيرة لترد القرض حين نلتقى. وفى النهاية كففت عن دعوتها إلى المطاعم أو إعطائها أى هدايا صغيرة لكى أريحها تماما. وأعرف الآن عن يقين أنها لن تقبل أن أساعدها حتى لو فقدت عملها، فما الذى سيحدث لها ولنا؟..

فاجأتنى بريجيت حين مدت يدها لتمسك بيدى وهى تقول ضاحكة:

– لا تقلق .. لن تتخلص منى بسهولة! . .لابد أن هناك حلا آخر أو عملا آخر.

حدثنى مدير الشركة اليوم عن شخص يريد أن أعطيه دروسا فى اللغة الفرنسية. أستطيع على ما أظن أن أعطى دروسا للمبتدئين وللأجانب..

ولم أعرف إن كانت قد قالت ذلك لتطمئننى أم أنه حقيقى. ظلت تمسك بيدى بين يديها وتربت عليها كأنها تهدهدها وهى تتطلع من زجاج النافذة. وكان المطر لحظتها يتساقط فى قطرات كبيرة فوق النهر فتثب الأمواج وهى تستقبل تلك القطرات.

وقالت بريجيت وهى تنظر نحوى بابتسامة ماكرة: أرأيت ؟.. ها هى السماء تمارس الحب مع النهر وسيلدان أمواجا جديدة.

ثم بدأت تهز يدى وهى تقول بصوت مرتفع إلى حد ما: هيه!.. أنت!.. فيم تفكر؟

– أفكر فيما قلت أنت الآن وفى أشياء حدثت اليوم. أفكر فيما سيحدث غدا.

مطّت شفتيها وهى تسحب يدها من يدي قائلة: إذن أنت لم تتغير أبدا. قلت لك مرات كثيرة لايهم ما حدث ولا ما سيحدث. نحن لانملك غير لحظتنا، هنا والآن..

قلت مازحا: عمرى ضعف عمرك وتعطيننى دروسا؟

– وما ذنبى إن كنت لم تتعلم درسك طول هذا العمر؟..

الحق معها!.. ولكن ماذا أفعل وصورة إيلين تخايلنى طول الوقت؟.. لايفارقنى صوتها الحزين وهى تحاول ألا تفقد كل كبرياء بينما تتوسل إلى بالفعل؟ .. أى نذير هذا ؟..

ظلت بريجيت تتطلع عبر النافذة فى صمت وقد ارتسم على وجهها الشارد شبح ابتسامة بينما تزداد الأمطار غزارة وتتدافع الغيوم السوداء فى السماء.

ثم التفتت نحوى وقالت: أظن أننا أسرة من المجانين!

– أنت قلت! ولكن ما الذى ذكرك بهذا الآن؟

– تلك الأمطار .. ذكرتنى بيوم كهذا اليوم فى طفولتى «قطبت جبينها لحظة كأنها تسترجع الذكرى بالضبط» غير أن صباحه [illegible]

أجلس مع أبى فى مكتبته أراقبه صامتة كالعادة عندما التفت نحوى فجأة وقال: بريجيت! هل تعرفين أسماء الأشجار؟.. ولم أكن أعرفها، فقال عار أنك حتى الآن لاتعرفين أسماء الأشجار، هيا - فلنفعل اليوم شيئا مفيدا . سأعلمك الأسماء!.. وكانت فى طرف البلدة حديقة نباتات واسعة كأنها غابة، ولكن حين وصلنا إلى هناك بدأت الغيوم تغطى الشمس وأصبحت الحديقة معتمة تقريبا، ثم هطل المطر. غير أن شيئا من ذلك لم يوقف أبى. كان يصحبنى من شجرة إلى أخرى. يقطف ورقة من إحدى الأشجار ليقارن بينها وبين ورقة جارة لها بانهماك تام . يحكى كل التفاصيل التى يعرفها وأنا أتابعه، لاأريد أن تفوتنى كلمة. ولم تكن معنا حتى مظلة نغطى بها رءوسنا . كنا نجرى لنحتمى فى ظل أغصان شجرة دردار أو أغصان أخرى وارفة دون أن يكف عن شرحه ودون أن أغفل أنا عنه لحظة. ولكن حين وصلنا إلى البيت صرخت أمى فى فزع. بكت وراحت تصيح فى وجه أبى أن يغير ملابسه بسرعة وهى تخلع عنى ثوبى المبتل وتجفف شعرى والدموع فى عينيها مدمدمة: ستموت البنت، سيصيبها التهاب رئوى وستموت، بالتأكيد، وبالتأكيد ! ولم يذهب أبى ليغير ملابسه بل وقف مزروعا فى مكانه يقطر منه الماء ونظر نحوى فى ذعر وكأنه قد انتبه فجأة إلى ما حدث، فغمزت له بعينى لأطمئنه. هل تعرف؟.. لم يمت هذا الدرس أبدا . عندى فى كل بلد أصدقاء من الأشجار، أذهب إليها لتشاركنى فرحى ولكى أشكو لها حزنى. أعتقد أن الأشجار تفهمنى، أنا واثقة أنها تفهمنى. ما رأيك أن ننجب طفلا؟

لم أنتبه إلى السؤال فى أول الأمر. ولكن الخيوط المتوازية كانت تتجمع الآن بجوار عينيها وحول ذقنها والتمعت عيناها وهى تنظر نحوى في لهفة:

- أنت تمزحين؟

- لا، لم أفكر أبدا فى طفل منذ.. منذ غاب ذلك الآخر.

- طفل؟ .. فى مثل سنى يابريجيت؟

- وما يهم؟.. لايكون الوقت متأخرا أبدا لكى تقدم هديتك للحياة. طفل هو أنت وهو أنا. نعيش فيه معا ونعيش معه، بعيدا.. فى جزيرة أو فوق جبل. نعلمه أن يحب الأشجار والزهور والشعر، ونعلمه هو أيضا كيف يتخذ من الأشجار أصدقاء له -

يصغى لما تقوله أغصانها ويفهم الرسائل التى تبعثها أوراقها المتساقطة. نعلمه أيضا ألا ينساها فى الخريف. يقول للشجرة إنه معها فى عذاب الموت والميلاد، وإنه هو أيضا سيولد معها من جديد حين تنبت أوراقها الخضراء مرة أخرى، لكنه لن ينساها وهى تقف عارية فى الشتاء، بل يمنحها بحبه الدفء. دعنا ننجب ذلك الطفل!

كانت وجنتاها متضرجتين. كانت ترتجف بالفعل وهى تهز يدى فى لهفة وحماس.

سكتُّ لحظة قبل أن أقول لها: وماذا سيحدث عندما ينزل يوما من فوق ذلك الجبل أو يرحل من تلك الجزيرة؟.. هل سيحنو عليه الناس مثلما تحنو الأشجار؟

– ولكن ألم نقل لك إننا سنعلمه الحب قبل كل شىء؟ لابد أنه سينجو بالحب مثلما نجونا نحن. أليس كذلك؟ سينجو دائما.. دائما..

ولكن شيئا من الشك تسرب إلى صوتها وهى تتمتم «دائما .. دائما» بلا انقطاع، بصوت خافت كأنما تريد أن تقنع نفسها وأن تقنعنى بأن ذلك صحيح. وبدا لى الآن وهى تزم شفتيها المرتجفتين أنها تغالب البكاء وتغالب الاعتراف بأنها تسعى وراء حلم بعيد.

كيف أحميها؟.. لو أعرف كيف أحمى هذه التى منحتنى كل ذلك الحب، والتى تجلس الآن أمامى مهزومة تبحث عن طفل مستحيل فى عالم مستحيل!.. رحت أربت على يدها وأضغط عليها برفق، أريد أن أنقل لها دون كلام أنى أفهم، وأنى معها فى لحظة الحنين تلك، أن أقول لها أنت يا ابريجيت التى قلت إننا نجونا بالحب، والتى قلت فلنعش لحظتنا التى نملكها، فلم لا تفعلين الآن ذلك؟.. ضممت أناملها ثم رفعتها إلى فمى وهمست لتلك الأنامل البيضاء الطويلة التى أعشقها فقط دعى هذا اليوم يبطىء. أنا لا أطمع فى الأحلام المستحيلة. فقط دعيه يبطىء، هذا هو كل ما أطمع فيه .

ولكن خاطرا شريرا تسرب إلى ذهنى فجأة فأنزلت يدها وهتفت

– بريجيت ! هل أنت..

- لا !

- أنا لم أسألك عن شيء بعد.

هزت رأسها في بطء وهي تقول: ولكني أعرف سؤالك ياصديقي . لا . لست حاملا . لن أفعل شيئا من وراء ظهرك إن كان هذا ما تخشاه.

لزمت الصمت والتفتُّ نحو النافذة من جديد. كان بخار الماء الذي تكاثف على الزجاج يحجب رؤية النهر والجبل، وحلَّت بالمقهى عتمة كعتمة الغروب. وحين عدت أنظر إلى بريجيت كانت تحني رأسها وبدا وجهها الذي تحيط به الخصلات المهوشة مطموسا وكأنما يبين هو أيضا من وراء غيمة.

كان صمت ووجوم. توهج شيء لحظة واحدة ثم انطفأ. وطوال جلستنا لم أحاول أن أشرح شيئا أو أن أبرر شيئا. ولم تنفع محاولاتي ولا محاولاتها في طرد الكآبة التي حلت بعد جوابها عن سؤالي الذي لم أنطق به. رحنا نثرثر ونحاول أن ننسى ذلك الطفل الذي ولد لحظة واحدة عشق فيها الأشجار ثم مات على طرف سؤال. ولكنا نعرف أنه هناك يخايلها ويخايلني. يعذبها بالندم لأنها أحبته ويعذبني لأني وأدته من قبل أن يكون.

وانتهت جلستنا بسرعة بعد ذلك. عرضت عليها أن تأتي معي فاعتذرت بأنها مصدعة وتود أن ترتاح قليلا. قالت أوصلني حتى البيت. وقبل أن تنزل من السيارة قالت بلهجة عابرة سأتصل بك لكي نلتقي في المساء.

كنت أنا أيضا مجهدا . وحين وصلت إلى البيت سحبت رسائلي من صندوق البريد وصعدت إلى الشقة ثم ألقيت الصحف على المكتب وأنا أغمغم فليكن يابريجيت. فليكن ياإيلين. فليحدث ما يحدث! ... وكان الإجهاد يخلي السبيل للاستهانة.

أرجأت موعد الحديث مع خالد وهنادي. لم أكن مستعدا بعد. لم أكن قد تخلصت بعد من الطفل الذي لم يولد لأفرغ للأطفال الكبار، فرحت أجول في الغرفة أعيد ترتيب الأشياء دون هدف. أنقل المقاعد وأغير ترتيب الكتب في المكتبة، مرة حسب الحجم ومرة حسب الموضوع، ووجدت فوق أحد الأرفف صورة

عبدالناصر التى تهشم زجاجها يوم أسقطتها معى على الأرض. كان الزجاج المكسور قد كشط جزءا من فمه وشوه ابتسامته فبدا وجهه حزينا. قررت مرة أخرى أن أعيد وضعها فى إطار جديد، ثم وقفت وسط الصالة الصغيرة أتأمل يمينا ويسارا. لم يبق ما يمكن عمله!.. لم يكن هناك من الأصل ما يمكن عمله فعدت مستسلما، جلست إلى المكتب وأخذت أستعرض حصيلة البريد.

وجدت بعض أعداد من صحيفتي القاهرية. ألقيت نظرة على العناوين ثم وضعتها جانبا. استبقيت عدد الخميس وفتحت الصفحة الثامنة التى تنشر فيها منار مقالها الأسبوعى، ولكن المقال لم يكن هناك. كان هناك بدلا منه موضوع دينى «بين الشريعة والتاريخ» فوضعت العدد فوق الصحف الأخرى، وبدأت أدير رقم القاهرة فى قرص التليفون وأنا أنظر شاردا للصورة المنشورة مع المقال الدينى. كانت صورة جانبية لوجه امرأة محجبة، تغطى الطرحة البيضاء شعرها وتحيط بوجهها. قلت لنفسى وأنا أواصل بطريقة آلية محاولة التقاط الرقم أنا أعرف هذا الوجه. ليس غريبا عنى.

ثم فجأة وضعت السماعة واختطفت الصحيفة.

نعم! .. بالطبع هى منار! .. نعم هى صفحة المرأة كالعادة يتوسطها اسم منار! وهناك عنوان فرعي بخط صغير تحت العنوان الرئيسى «بين الشريعة والتاريخ: ماذا جرى لحقوق المرأة؟» جريت بعينى على السطور وكنت قد خمنت الفكرة منذ العنوان: الشريعة صانت للمرأة حقوقها المادية والأدبية ولكن الرجال على مر التاريخ راحوا ينتقصون من هذه الحقوق. وكان المقال مليئا بالشواهد والاقتباسات من المراجع الدينية. ولم أجد أسلوب منار التقليدى. خفت حدة هجومها على الرجال الذين كانت تدخر لهم فى مقالاتها كلمات كطلقات الرصاص أبسطها الجبروت التاريخى للرجل، وفقهاء الجهل والكذب والذين يكسرون أعناق النصوص.. إلخ. هذه المرة كانت أقوى عبارة فى مقالها أن الرجال لو فهموا الشريعة كما ينبغى لتحققت المساواة منذ زمن بعيد لأن النساء لهن في الشريعة حقوق مساوية لواجباتهن، وإذا كانت للرجال حقوق إضافية فلأن عليهم واجبات إضافية.

وضعت الصحيفة أمامى ورحت أحدق فيها.

حتى الأسبوع الماضى فقط كانت تتوسط كلمتها تلك الصورة التى تظهر منذ عشر سنين فى صفحة المرأة، الصورة التى تطل بوجهها المبتسم وسط هالة شعرها الأسود المفروق وهو يسترسل على جانبى وجهها. فى الصورة الجديدة كان وجهها وقورا وهى تحدق بنظرتها الجانبية إلى بعيد. وعاد إلى ذهنى اللقب القديم الذى كانوا يصفون به منار أول ما عملت فى الصحيفة. كانوا يتندرون على حماستها ويسمونها «منار شفيق» على اسم درية شفيق التى كانت تؤلف حزبا نسائيا، حلّه عبدالناصر بعد الثورة. طرأت على بالى لحظات من حوارنا معا وهى تدافع عن حقها فى أن تختار العمل الذى تشاء وفى أن تلبس ما تشاء وفى أن تفعل مثلما أفعل بالضبط، وإياك أن تقول لى رجل وامرأة!

والآن ما رأيك يا صديقى ؟

قل لى أنت ماذا تفعل لو ظللت تكتب مثلها ثلاثين سنة لتقول الكلام نفسه: يجب تحرير المرأة.. يجب تحرير المرأة، فإذا بالمرأة لاتريد أن تتحرر ولا يحزنون؟ ماذا تفعل فى النهاية؟.. إن لم تهزمهم فاتبعهم!

ومع ذلك فهناك رد أبسط : منار تمضى فى طريق الفضيلة وأنت تتردى فى الرذيلة!

بسيط جدا!

مددت يدى إلى سماعة التليفون ورحت مرة أخرى أدير رقم القاهرة، لكنى وضعت السماعة من جديد. وما رأيك فى خالد؟.. بسيط جدا أيضا؟.. يخرج من صلب الطالح صالح؟..

هيا فلتواجه الحقيقة . نعم . أحيانا أشعر بالخجل من نفسى لأنه بمثل هذا الشباب وهذه البراءة ولأننى ذلك الكهل أتشبث بآخر قطرة مما يمكن للحياة أن تقدمه. أذكر جيدا ما قاله إبراهيم عن الظروف التى تصنعنا. إذن فما هى تلك الظروف التى جعلت جيلنا لايرى فى الحياة عارا؟.. لماذا قبلنا اننا بشر نخطىء ونصيب ونعصى ونتوب، نطمع فى رحمة الله ونثق أن أوان التوبة سيأتى قبل أن

تضيع فرصتها، ولماذا يريد خالد أن يكون ملاكا لايشوب نقاءه مجرد دور من الشطرنج ؟ .. أعرف أنه لو عاش تلك الحياة مثلما بدأ فلن يعرف الحيرة التى عشناها نحن. لن يحاول أن يصحح ماضيه مثلما تحاول منار الآن بطريقتها ومثلما أحاول بطريقتى. لن يكون فى الحياة صراع ولا فى الروح صدع. سيكون كل شيء سهلا وواضحا . ومع ذلك فهناك شيء فى داخلى يقول إن هذا مستحيل ياخالد!.. لم يحدث أبدا أن نبتت للبشر أجنحة الملائكة. لو أنك معى الآن لتكلمنا مثلما كنا نتكلم من قبل كأصدقاء. لحاولت أن أشرح لك وأن أستمع إليك. ولكن هيا!.. لا تتلذذ بتعذيب نفسك!..

طويت الصحيفة وطويت صورة منار ثم عدت أدير الرقم. وبعد المحاولات المعتادة جاءنى صوت خالد:

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ياخالد. إمال فين هنادى؟.. مارديتش على الأول ليه زى العادة؟

- هى قاعدة جنبى وحاتكلمك حالا «ثم ضحك» أصلها زعلانة.

- زعلانة منى؟

- لأ، منى أنا .

- عملت لها إية تانى ياخالد؟.. حكاية التليفزيون برضه؟

- لأ، بتتفرج على التليفزيون زى ما هى عايزة. أصلها .. «ابتعد صوته قليلا» استنى يابنت .. ما تخطفيش السماعة..

ولكن صوت هنادى تدفق باكيا : إسمع يابابا... قول لخالد ده مالوش دعوة بىّ أبدا - وإلا أنا حا أطفش من البيت ده خالص!

- ياساتر يارب!.. تطفشى مرة واحدة؟ ليه كفى الله الشر؟

- كل يوم يا بابا ينكد علىّ ويخترع لى حكاية جديدة!.. دلوقت مش عايزنى أروح النادى. حتى ماما قالت له يسيبنى فى حالى مش بيسمع الكلام.. مش

بيرضى يخلينى أخرج و...

اختنق صوتها مرة أخرى بالبكاء.

- إهدى ياهنادى.. إهدى وادينى خالد. حتروحى النادى زى ما انتى عايزة. بس بطلى عياط ياحبيبتي عشان خاطر بابا . أرجوك..

ولكن صوتها استمر وسط بكاء لاتسيطر عليه: قل له .. قل له يا بابا.

- حاضر ، ادينى خالد.

جاء صوته هادئا: السلام عليكم.

- إحنا سلمنا على بعض قبل كده يا خالد!.. إيه حكايتك مع اختك؟

- يا بابا أصل النادى فيه مساخر وفيه شباب فاسدين وأنا..

- أى حته فى الدنيا فيها ناس فاسدين وفيها ناس كويسين. سيبها تتعلم بنفسها وتحمى روحها..

احتد وهو يقول: إذا كنت أنا الراجل بطلت أروح النادى. هى تروح؟ حضرتك حتدلعها زى ماما وتسمع كلامها أول ما تنزل لها دمعتين؟ هنادى ما بقيتش صغيرة، وأنا هنا ولى أمرها!..

- انت بترفع صوتك عليّ ياخالد؟.. وأنت ولى أمرها؟.. أنا لسه ما متش يا ابنى.

- بعيد الشر، أنا ما أقصدش كده. أنا قصدى..

ارتفع صوتى أنا أيضا - مش عايز أعرف قصدك!.. أنا قلت لك مالكش دعوة بيها وسيبها فى حالها. فاهم ولا لأ؟ .. ياأخى أنا عمرى ما فرضت عليك رأى ولا قلت لك اعمل كذا ولا بطل كيت.. سيبتك حر تفكر زى ما أنت عايز وتتصرف زى ما أنت عايز . مش كده؟

-أيوه.

- إمال اشمعنى أنت عايز تفرض رأيك على غيرك؟.. دى حاجة غريبة! سيب هنادى كمان حرة، خليها تخرج وتروح النادى وتعمل اللى هى عايزاه. فاهم؟

تردد لحظة ثم قال بصوت خافت: أمرك. مادام حضرتك مش مقتنع بوجهة نظرى «ثم سكت لحظة» بس أنا كنت عايز أكلم حضرتك فى موضوع تانى خالص.

– طيب الأول ادينى هنادى.

– أيوه يا بابا.

– خلاص ياهنادى. أنا فهمت خالد إنك تخرجى وتروحى النادى وقت ما أنت عايزة. لكن طبعا لازم تاخدى إذن ماما، وتقولى لها حتخرجى إمتى وحترجعى إمتى..

كانت شهقات البكاء لاتزال تغمر صوتها وهى تقول : ما هو أنا... ما هو أنا بأعمل كده والله يا بابا .. ميرسى يا بابا.

– وبرضه ياهنادى مش عايزك تزعلى أخوك .

انفجرت مرة أخرى: وهو ده حد يعرف يزعله؟ .. ده ينكد على بلد بحالها وهو قاعد متسلطن ويقول لك «السلام عليكم»..

كانت تقلد طريقته بالضبط فابتسمت بالرغم منى ولكنى قلت – عيب ياهنادى. كده أنا اللى حا ازعل منك. ده أخوكِ الكبير ولازم تحترميه.

– بس كده؟ .. إنت تأمر . باى باى.. أنا باحترمك ياسى خالد، مبسوط؟.. خد كلم بابا.

– استنى دقيقة يا هنادى!

– أيوه يا بابا.

– باقول لك يا هنادى «سكتُّ لحظة ثم قلت» أرجوكِ يا هنادى.. خليكِ زى ما أنت وإوعى تتغيرى!

سألت فى دهشة : وإيه اللى حيغيرنى يا بابا؟

– مش عارف. فيه حاجات كتير بتغير الناس ياحبيبتى، حاجات من برّاهم وحاجات من جوّاهم.

– ولو إنى طبعا مش فاهمة أى حاجة من اللى حضترتك بتقوله، لكن إن شاء الله كله حيبجى كويس! بس أنت ما تاخدش فى بالك كده ووقّ..

وضحكت لأول مرة منذ بدأت المكالمة ضحكتها الصافية الطلقة. وهى تقول: باى باى .. معاك خالد.

وصلنى صوته من بعيد وهو يخاطب أخته. لو سمحتِ تخرجى لأنى عايز أكلم بابا في موضوع خاص .. أيوه يا بابا.

حاولت أن أتخلص من انفعالى وأنا أسأله بهدوء:

– خير ياخالد؟

– خير بإذن الله . كل خير . بس ربنا يوفق. أنا كنت عايز أكلم حضرتك عن موضوع ماما.

– أى موضوع؟

– اللى حضترتك عارفه يعنى..

– أنا مش عارف أى حاجة ياخالد .. قول بسرعة فيه إيه؟

– قصدى يا بابا إن حضرتك عارف إن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

صرخت : وده موضوع نتكلم فيه فى التليفون ياخالد؟

– معلهش سامحنى. أصل أنا شاعر كده إن ماما ربنا هداها فى الفترة الأخيرة. ماما اتغيرت خالص.

– وأنت اللى اقنعتها بـ ... بالتغيير ده؟

– ياريت ، كنت كسبت ثواب. هى والله اللى ربنا هداها كده لوحدها . قعدت مدة تشوف البرامج الدينية فى التليفزيون، وبعدين بقت تاخد منى كتب لغاية ربنا ما هداها خالص. فأنا بيتهيأ لى إنى لو كلمتها دلوقت عن الصلح ألاقى عندها استعداد . بأقول يعنى..

صرخت مرة أخرى : ما تقولش حاجة ياخالد. مش فى التليفون!

– ليه ؟ .. هو احنا بنقول حاجة عيب؟ إسمعنى بس يا بابا. أنا رأيى إنى

أحاول دلوقت أجس نبض ماما يمكن تكون..

بذلت مجهودا لكى لا أصرخ مرة أخرى.

- ما تحاولش حاجة يا خالد. كتر خيرك إنك مهتم بالمسألة دى، بس دى حكاية مش مجالها التليفون زى ما قلت لك. حا ابقى أكتب لك جواب.

قال بإصرار : حضرتك عودتنى دايما على الصراحة وإننا نتكلم كأصحاب. فماتزعلش دلوقت لما أقول لك رأيى. إنت بصراحة غلطان.. لأن زى ما قلت لحضرتك إن ده أبغض الحلال وحضرتك غلطان.

سكت لحظة ثم قلت:

- وإيه لزوم «حضرتك» دى بقى ياخالد؟ كتر خيرك يا ابنى. إنت قلت رأيك بصراحة وأنا سمعته. بس برضه ما تفتحش الموضع ده بعد كده. وأنا متأكد إن ده كمان حيكون رأى والدتك لو كلمتها. مع السلامة دلوقت.

- و«عليكم السلام ورحمة الله».

كنت أرتجف وأنا أضع سماعة التليفون.

قمت مرة أخرى أذرع الغرفة الضيقة. إلى أين ستنتهى ياخالد؟.. نعم كنا صاحبين دائما كما قلت. ولكننا كنا دائما نتناقش قبل أن تقول رأيك. الآن أنت تريد أن تقرر وحدك وأن تنفذ وحدك. تريد أن تنفذ ما تريده لهنادى ولأمك ولى.

هل ستقول لى مثل يوسف ولكى عندما بحثت عنك لم أجدك؟ لا .. لا ألوم نفسى هنا أبدا. أنت الذى اخترت. كنت ناضجا واخترت. يأتى إلى ذهنى الآن ذلك النقاش الذى دار بيننا ذات مرة ونحن نلعب الشطرنج أيام كنت فى الثانوية . كنت أيامها قد قرأت مسرحية ماكبث فقلت لى ولكن يا بابا ماذنبه؟.. الساحرات أغوينه بالعرش وقلن إنه لابد أن يرتقى ذلك العرش. كان مسيراً حين قتل، فما ذنبه؟ قلت لك يومها إن ماكبث هو الذى خلق الساحرات لكى يحقق أطماعه وإن الساحرات من بنات أفكاره لا أكثر نعم. ولكن ما أهمية هذه الحكاية؟ لماذا تطرأ على بالى الآن؟ .. نعم، تذكرت. أفكِّر، كم كنت رقيقا وحساسا ياخالد! حتى ماكبث القاتل كان صعبا عليك أن تدينه!.. فأين ذهبت تلك الرقة الأولى؟ أين ذهبت تلك

الحساسية؟ لماذا تقول بذلك الحسم وبتلك الإدانة القاطعة «إنت غلطان»؟ ماذا تعرف عن التجربة التى عشتها أنا أو التى عاشتها أمك لتصدر الحكم بهذا الإصرار؟ «غلطان يا بابا»! إن كنت أنا حتى الآن أحاول أن أفهم دون أن أدينها هى قطٌ ، فكيف تديننى أنت بهذه البساطة؟.. كيف احتكرت الحقيقة لنفسك؟

أعرف أنك منذ مدة كففت عن أن تقرأ ماكبث أو غيرها . لم تعد تقرأ غير الكتب التى تثبت لك أنك على حق وأن كل الآخرين على خطأ. ولكن احذر ياخالد!.. إحذر لأن كل الشرور التى عرفتها فى الدنيا خرجت من هذا الكهف المعتم. تبدأ فكرة وتنتهى شرا: أنا على حق ورأيى هو الأفضل. أنا الأفضل إذن فالآخرون على ضلال . أنا الأفضل لأنى شعب الله المختار والآخرون أغيار. الأفضل لأنى من أبناء الرب المغفورة خطاياهم والآخرون هراطقة. الأفضل لأنى شيعى والآخرون سنة أو لأنى سنى والآخرون شيعة. الأفضل لأنى أبيض والآخرون ملونون أو لأنى تقدمى والآخرون رجعيون. وهكذا إلى ما لا نهاية. انظر ياخالد إلى ما يدور فى الدنيا الآن. انظر إلى تلك الحرب التى لاتريد أن تنتهى بين العراق وإيران وكل طرف فيها على حق ومفاتيح الجنة تُوزع دون حساب والدم ينزف دون حساب. انظر إلى تلك المجزرة فى لبنان وشعب الله المختار يستأصل شعبا غير مختار ويقول قائد جيشه «العربى الجيِّد هو العربى الميت» !.. كل ذلك القتل لأن القاتل دائما هو الأفضل، هو الأرقى، وعجلة المجازر تدور طوال الوقت لتستأصل الآخرين، الأغيار، أعداء الرب، أعداء العقيدة الصحيحة، أعداء الجنس الأبيض، أعداء التقدم .. الأعداء دائما وإلى ما لا نهاية. مع أنه لاتوجد في العالم حرب شريفة غير تلك التى تدافع فيها عن بيتك أو عن أهلك أو عن أرضك وكل حرب غيرها فهى قتل جبان.

ستقول لي ياخالد ولكن أنا لم أفعل شيئا من هذا كله! أنا فقط تحدثت عن الطلاق وعن النادى وعن الشطرنج!.. نعم، ولكن احذر مع ذلك من هذا الطريق يا ولدى!.. احذر ياخالد لأنه يبدأ من هنا وينتهى هناك. يبدأ بأنت مخطىء وينتهى بأنت تستحق القتل!

رجعت إلى المكتب محموما . نعم، سأكتب هذا كله!.. سأكتب هذه الرسالة إلى خالد .

سأنبهه قبل أن يفوت الوقت. وأخرجت القلم والورقة.

ولكن انتظر!

هناك شيء ناقص في ذلك كله! أنت تريد أن تقول له الحقيقة كما تعرفها.. تريد أن تكون أمينا معه كما كنت دائما، ولكنك لم تذكر شيئا عن بريجيت!

لم تقل له إن لك عشيقة !

هل تجسر أن تفعلها؟

قلت من قبل إنك تشعر بالذنب وبالذات حين تفكر فى خالد وفى براءته.

وتعرف أيضا أنك لاتستطيع الحياة دون بريجيت.

شعورك بالذنب صادق وحبك صادق، ولكن لا الذنب يلغى الحب ولا الحب يلغى الذنب.

فهل تكتب ذلك أيضا؟

نعم. يجب أن يعرف كل شىء!.. أن يعرف وأن يفكر!.. يفكر ثم يصفح، يفكر ثم يدين، ولكن المهم أن يفكر !

المهم أن تعرف أنت كيف تكتب له.

★★★

بعد أيام زارتنى بريجيت فى الشقة زيارة غير متوقعة فى الظهيرة.

أدهشنى رنين الجرس المستمر الذى تصحبه طرقات ملحة وعندما فتحت الباب اندفعت بريجيت إلى الداخل كالإعصار. ظلت تقف وسط الصالة الصغيرة محتقنة الوجه وهى تركز عينيها فى وجهى ثم قالت بلهجة غاضبة :

- ما معنى هذا ؟ .. أنت الذى كنت وراء حكاية الدروس هذه؟

- أى حكاية يابريجيت؟.. أنا لا أفهم أى شىء.

حاولت أن أمسك بيدها وأقودها لكى تجلس فسحبت يدها فى عنف وهى تقول: هل سمعت أنى أبحث عن إحسان؟

- ولكن أنا لا أعرف عن أي شيء تتكلمين. قولي ما المسألة؟

- ومع ذلك فقد ذكر اسمك.

قلت في شيء من الغضب - من الذي ذكر اسمي؟ اهدئي من فضلك وقولي كلاما مفهوما بدلا من كلمات الإحسان .. وذكر اسمك. ما هي الحكاية بالضبط؟

قالت في بطء متعمد وهي تركز على كل كلمة من كلماتها: الأمير العربي .. الذي يرد دروس اللغة الفرنسية.. ذكر اسمك.

سكتُّ لحظة ثم قلت متشككا : أمير؟ اسمه الأمير حامد؟

- إن كنت تظن أني سأحفظ هذه الأسماء!.. ربما. أظن هذا هو اسمه.

سبقتها إلى الجلوس على مقعد وأنا أحاول أن استوعب بسرعة ما حدث فسألتها:

- ولكن كيف وصل إليك؟

ظلت تقف وفي عينيها نظرة اتهام وهي تقول:

- هذا ما أود أن أعرفه منك. قلت لك من قبل إن مدير الشركة..

- نعم ، نعم أذكر.. عرض عليك أن تعطي دروسا في الفرنسية بعدما قلَّت أفواج السياح. ولكن هل ذكر لك وقتها اسم الشخص الذي يريد الدروس؟

- لا ، قال إنه شخص غني. هذا كل ما في الأمر.

بدأت بريجيت تشك في اتهامها لي بأنني وراء هذا الموضوع فتقدمت بخطوات مترددة وجلست إلى جواري وهي تسأل في حيرة:

- ولكن إن كان يتكلم الفرنسية بطلاقة فما حاجته إلى دروس؟

- هو يتكلم الفرنسية أيضا؟

- أنت لاتعلم ذلك ؟

نفد صبري وقلت بصوت مرتفع: كفى!.. قلت لك إني لا أعرف شيئا على الإطلاق عن هذه الحكاية. لم أر هذا الأمير سوى مرة واحدة في حياتي وحدثتك

عنه يومها.

– نعم، ولهذا اعتقدت أنك ربما.، لأنني تكلمت وقتها عن الأموال التي يبذرها وقلت إنني لا أمانع..

– لست غبيا إلى هذا الحد يابريجيت. أظن أني أعرفك أفضل من ذلك. ولكن ماذا قال لك عني؟ أرجو أن تتذكري فهذا مهم..

غير أن بريجيت تذكرت شيئا آخر فقالت: انتظر لحظة. إن كنت لم تحدثه عني فكيف عرف بعلاقتنا؟

– هو تحدث عن هذا أيضا؟

– ليس بشكل مباشر . كان يلمِّح هو شخص معقد ولم أستطع أن أفهمه تماما..

أسندت بريجيت رأسها إلى ظهر المقعد وأغمضت عينيها وقالت بلهجة متعبة:

– لم أعد أطيق الحكايات المعقدة. لم أعد أطيق أي حكايات..

غير أني توسلت إليها أن تركز قليلا وأن تذكر لي كل ما دار، وبالكاد فهمت منها ما حدث.

عرفت منها أن الأمير انتقل من الفندق لأنها ذهبت إلى عنوان آخر أعطاه لها مدير الشركة. قالت إنه قصر كبير في الجبل على ضفة النهر الأخرى، وإنها لم تدخل في حياتها قصرا بهذه الفخامة والاتساع. ظل كل فرد من الحاشية يسلمها إلى آخر حتى وصلت في النهاية إلى مكتب الأمير. لم تتوقع أن تجده بمثل هذا الشباب والأناقة. بصراحة توقعته كهلا يلبس جلبابا أبيض ويغطي رأسه بذلك «الإيشارب» الذي لاتعرف اسمه. توقعت أنه يريد أن يتعلم بعض جمل وكلمات لكي يتصرف عندما يشتري من المحلات أو عندما يجلس في المطاعم مثل أولئك الآلاف الذين يزحمون المدينة في الصيف. ولكن الأمير الذي استقبلها بتهذيب شديد تحدث معها قليلا بالانجليزية وشرح لها أنه قرر أن يقضي وقتا في هذا البلد الذي يتكلم الفرنسية ولهذا فهو يريد أن يتدرب على المحاورة والكتابة. نبهها مع ذلك أنه لايبدأ من الصفر لأنه سبق أن أخذ دورات في الفرنسية، ولكنه غير مقتنع

بالمستوى الذى حصله..

لم يكن كل هذا يعنينى فسألتها فى لهفة - ولكن ماذا قال لك عنى ؟ ماذا قال عنا؟ هذا هو المهم.

- قلت لك إنه تحدث بطريقة ملتوية. سألنى إن كنت مهتمة بالصحافة ولما نفيت ذلك قال بشكل عابر ولكنى أعتقد أن لنا صديقا مشتركا يعمل بالصحافة. رددت عليه أن صديقنا الوحيد المشترك فيما أعلم هو مدير الشركة الذى أعطاه اسمى وأعطاه عنوانى، فقال طبعا، وهو الذى فهمت منه أنك تعرفين بعض الصحفيين هنا ومنهم صديقى فلان. تجاهلت ذلك، وقلت إنى أفضل أن نبدأ الدرس لأن مدته ساعة وقد فات منها بعض الوقت بالفعل. بدا عليه لحظتها شىء من الضيق ولكننا فيما بقى من الساعة لم يخرج حديثنا عن تعليم اللغة الفرنسية. عاملته مثل أى تلميذ. بدأت أوجه له أسئلة بالفرنسية وأتحدث معه عن قواعد اللغة فاكتشفت أنه لايحتاج إلى أى شىء. وخطر لى أنك أنت الذى كنت وراء هذه المسألة وأن الأمير أراد أن أعرف ذلك حين ذكر اسمك فشعرت بالسخط عليك، غير أنى لم أسأل الأمير عن أى شىء. واصلت معه الدرس حتى انتهت الساعة فشكرنى وقال إنه سيتصل بى لنحدد موعد الدرس التالي. ودعته دون أن أرد على ذلك، ولكن سكرتيرته التى اصطحبتنى خارج مكتبه قدمت لى ظرفا أبيض مغلقا. فتحته أمامها فوجدت بداخله الشيك. هل تعرف ما هو المبلغ؟

- أرجو ألا يكون عشرين ألف دولار !..

فضحكت ضحكة صغيرة وقالت - بالنسبة لى هو أهم حتى من عشرين ألف دولارا.. كان الشيك هو مرتبى بالضبط من الشركة فى شهر كامل. أعدته إلى الظرف ورددته إلى السكرتيرة وقلت لها أن تشكر الأمير وتبلغه أنى لا أستحق أى أجر، لأنه إذا كان يحتاج إلى درس فلست أنا التى أصلح لذلك. هو ليس مبتدئا والفرنسية ليست لغتى الأصلية. من يحسبنى؟

- ولكن صديقى يوسف كان سيقول مع ذلك إنك قد أعطيته درسا بالفعل!

- ومن يكون هذا أيضا؟

- لا يهم. ولكن حاولى أن تتذكرى. هل كان سؤاله هذا هو كل ما ذكره عنى؟

- نعم، لم أعطه الفرصة لشيء آخر . أردته أن يفهم أنى لا أريد الدخول معه فى أى حديث خارج حكاية الدروس، وقد فهم . ولكن ما الذى كان يريده بالفعل فى رأيك؟

فكرت ثم قلت: أنت لم تسمحى له بأن يتكلم لكى نفهم. كل ما يمكن أن نخرج به من هذه الحكاية هو أنه يريد أن يبلغنا بأنه يعرف علاقتنا.

قالت باستهانة: وما أهمية أن يعرف أو لا يعرف؟.. أنا لا أمانع أن يعرف العالم كله أنى أحبك .. وأنت؟

- أنت تعرفين الجواب جيدا يابريجيت. تعرفين أنك أنت لى هذا العالم كله.

- وإذن فما أهمية أن يبلغنا أو لا يبلغنا؟.. أتعرف ماذا أظن؟.. أحسب أنه يريد أن يستعرض علينا ثراءه لاغير. أعترف لك بأن هناك شيئا جعلنى أنفر منه من أول لحظة ، جلعنى أندم على أنى وافقت أصلا على هذا الدرس. ربما هو قصره الكبير أو ثراؤه الفاحش أو محاولته أن يبدو دبلوماسيا جدا وجذابا جدا.

- هو بصراحة لايحاول ذلك. هو بالفعل ثرى جدا ودبلوماسى وجذاب.

- ربما ، ولهذا السبب لم أحبه. قلت لك من قبل إنى لا أحب العاقلين ولكنى أفضلهم مع ذلك على الأثرياء. تخيل!.. كل هذا المكان وكل هذه الحاشية لخدمة إنسان واحد، لماذا؟.. وهؤلاء العرب الفقراء الذين ينشرون صورهم فى المخيمات.. لماذا لايسكن فى بيت أصغر ويعطيهم الفرق؟

زفرت وأنا أقول: انتهى منذ زمن طويل هذا الكلام يابريجيت . منذ زمن طويل جدا!

- منذ متى؟

- ربما منذ الحرب الاسبانية ! .. أصبح الكلام بهذه الطريقة عارا إن لم يكن جريمة فى هذه الأيام. إسألى والدك.

ابتسمت بريجيت للمرة الأولى وقالت: نادرا ما نتكلم فى هذه الأشياء. أتحدث

معه فى أمور أهم. هو الآن مشغول بدراسة أصوات الطيور!.

ثم التفتت نحوى وقالت: هل سامحتنى على هذا الغضب الذى لم يكن له داع؟

قلت فى حزن حقيقى: بل سامحينى أنت يابريجيت لأنى أجرُّ عليك المتاعب.

لكنها عادت تسند رأسها إلى المقعد قائلة بشىء من الدهشة:

– لماذا تطاردنى هذه الحكايات؟.. لماذا أنا؟.. أنا لا أريد شيئا غير أن يتركنى العالم فى حالى، هل هذا كثير؟

وبعد ذلك غابت تماما. أمالت رأسها نحوى وهى تثبت فى وجهى حدقتيها الزرقاوين ولكنى أثق أنها لاترانى ولا تسمعنى وأنها يمكن أن تستمر على ذلك الوضع ساعة كاملة. تضع ساقا على ساق، تسند يديها إلى المقعد، تميل برقبتها نحوى، ويظل كل ذلك ثابتا على حاله طويلا قبل أن تهز رأسها وهى تتلفت فجأة وتسألنى : هه؟ ماذا كنت تقول؟

ولكن شيئا كان قد حدث لى أنا أيضا. جنون آخر كان قد استبد بى مثل جنونها. كانت لحظات الموات تلك هى اللحظات التى أبوح فيها بكل ما لا أقوله فى صحوها، أبوح قبل كل شىء بما أخاف منه. فهمست: أعرف يابرجيت ولو لم تنطقى أن شرخا قد حدث بيننا منذ قتلت أنا ذلك الطفل الذى صنعته أحلامك وأن صدعا آخر قد دقه الآن ذلك الأمير. نعم، أنت لاتريدين شيئا غير أن يتركك العالم وأنا لا أريد شيئا غير أن تكونى أنت هذا العالم. أعرف يابريجيت أنى مجرد صفحة فى كتاب حياتك، ولكن أنت صحفتى الأخيرة، لو طويتها فسينتهى كل شىء، فدعى تلك الصحفة تطوى نفسها على مهل.

أنت قلت إننا نجونا بالحب، فلا تدعى العالم يهزمنا لنضيع من جديد. هل أقرأ لك شعرا يابريجيت؟

لم يختلج لك جفن. ولكنى قمت وأحضرت ديوان نيرودا الذى أحبه وجلست أحتضنك وأقرأ لك:

أيتها الوردة

أيتها الوردة الصغيرة
أحيانا هشة وضئيلة
أحيانا أشعر أن كفًا واحدة
تكفى لكى تحتويك
ولكن فجأة تلمس قدمى قدمك
وفمى شفتيك
فإذا بك تكبرين
وإذا بكتفيك كجبلين
وإذا صدرك يغمر صدرى
فلا تكاد يدى تحيط بخصرك الصغير، كهلال وليد
انطلقت بالحب نفسك جارفة، موج بحر
يرتطم بالسماء التى تضيئها عيناك.
فأنحنى على فمك
وأقبل الأرض.

هذه هى أنت يابريجيت !.. لم يصف نيرودا غيرك!
وكنت أهمس لك، وكنت أصرخ ، ولكن قناع وجهك المائل لم يتحرك..

الفصـــــل العاشر

كل أطفـــال العــالم

حيرتنى معرفة مايريده الأمير من بريجيت أو منى. وتذكرت أننى فى الفترة الأخيرة كنت ألاحظ هنديا معينا يجلس فى المقهى حين ألتقى ببريجيت، وأننى كنت ألقاه أحيانا فى الطريق أمام البيت. ولكنى لم أهتم بذلك. قلت ربما هى مصادفة . من يهمه أن يراقبنا؟

وظللت أياما بعدها أيضا أحاول الاتصال بالأمير فى الرقم الذى حصلت عليه من بريجيت، ولكن ليندا هى التى كانت ترد علىّ باستمرار لتقول إن سموه غير موجود.

ولم أفلح أيضا فى الاتصال بيوسف لأرى إن كان يعرف أخبارا عن الأمير. لم يكن موجودا بدوره فى أى وقت. وأخيرا ذهبت إلى المقهى، رغم أنى كنت أحاول تجنب اللقاء مرة أخرى بإيلين. رأيت برنار يجلس فى ركنه المعتاد وأمامه كوب البيرة، لوّح لى بيده ولكن إيلين التى كانت تحمل بعض الطلبات للزبائن أشارت لى أيضا أنها تريدنى. فرغت من مهمتها بسرعة ثم تقدمت نحوى متجهمة الوجه.

قالت : معذرة، ولكن ماذا قلت ليوسف فى ذلك اليوم الذى تحدثنا فيه؟ ما الذي جرى له ؟

ـ لا أفهم يا إيلين. ما الذى جرى؟ سامحينى ولكن لم تسنح الفرصة لأكلمه عن شىء يخصك . تبادلنا الحديث فقط عن موضوع الصحيفة وقلت له إننى لا أستطيع أن أشترك فى العمل فيها ...

استندت إيلين بيدها إلى إحدى الموائد وهى تتطلع فى وجهى بنظرة يوشك أن يكون فيها اتهام، ثم أحنت رأسها وقالت بلهجة متشككة :

ـ هذا كل ماحدث؟

ـ نعم.. «ثم قلت بعد تردد» وتبادلنا أيضا حديثا عن الأمير.

ـ قلت له أن يعود إليه؟

ـ بالعكس، ومع ذلك فأنا لا أملك أن أطلب منه أن يعود أو لايعود. هو حر يفعل مايشاء .

ـ وتقابلتما بعدها، أليس كذلك؟

ـ إطلاقا. أنا جئت اليوم لأراه. أحتاجه فى موضوع هام بالفعل.

أفلتت منها ضحكة ساخرة وهى تقول: هام بالفعل!.. اتصل به ياسيدى عند الأمير إن كنت تريده!

همّت بأن تنصرف ولكنى أمسكت بيدها أستبقيها وأنا أقول :

ـ من فضلك يا إيلين. ماذا حدث بالضبط؟.. أقسم لك إنى لم أر يوسف منذ آخر مرة جئت فيها إلى هنا. ولم يتصل هو أيضا بى. ولكنى أفهم منك أن شيئا قد حدث فما هو؟

تطلعت إيلين فى اتجاه برنار لحظة ثم عادت تنظر فى وجهى طويلا قبل أن تقول :

ـ أنا لا أعرف ياسيدى عن أى شىء تحدثتما أنت ويوسف فى ذلك اليوم الذى جئت فيه، ولكن بعد أن انصرفت ترك المطبخ ولزم حجرته بقية اليوم، ثم فى الصباح قال إنه ذاهب إلى الأمير. ومن يومها لم أعد أراه تقريبا. يصحو فى الصباح ليذهب إلى الأمير ولا يرجع إلا فى آخر الليل.

ثم ضحكت ضحكتها الساخرة مرة أخرى وقالت : وهل يمكن أن تشرح لى لماذا لم يعد يحلق ذقنه؟..

غير أن أحد الزبائن ناداها فى تلك اللحظة ولوّح لى برنار مرة أخرى فذهبت نحوه. وبينما أجلس قال لى:

ـ هل كانت تحدثك عن يوسف ؟

ـ نعم، ولكننى لم أفهم أى شىء. كأنها تتهمنى.

قال باستخفاف ـ هى لاتفهم أى شىء.

ـ إذن أنت تعرف شيئا؟

قال باللهجة نفسها : وأنا لا أفهم أى شىء. ولا أحد فى الدنيا يفهم أى شىء.

قلت لنفسى هو فى إحدى حالات مزاجه السيىء. وكانت عيناه بالفعل محمرتين أكثر من العادة وهو يتجرع آخر ما فى كوبه ويشير إلى إيلين بيده أن تأتيه بكوب آخر. اعتمد ذقنه بيده وراح يتأمل صورة الفتاة السمينة التى تحمل ريشة الطائر ثم أطلق ضحكة مفاجئة قبل أن يسألنى : ما اسم ذلك الطبيب الذى نصحك أن تترك المهنة؟ أنا أيضا أريد أن أذهب إليه!

ـ تستطيع أن تترك المهنة دون إذن الطبيب يا برنار لو أردت .

ـ مع الأسف لا . المهنة قيد. هناك التأمينات وهناك المعاشات وكل هذه التعقيدات. لا تستطيع أن تغير مهنتك فى هذه السن دون سبب.

ـ أنت تتكلم جادا؟.. ألم تكن أنت الذى قلت مرة عندما كان إبراهيم هنا إن الصحفى يجب أن يبتعد مسافة عن عمله ؟

ـ أنا أقول أشياء كثيرة لا أعنيها . مثل صحيفتى بالضبط!

قلت مواسيا ـ ومع ذلك فصحيفتك تفعل شيئا جيدا هذه الأيام. هى الصحيفة الوحيدة على ما أظن التى تشن حملة على استخدام إسرائيل للقنابل المحرمة دوليا ضد المدنيين فى لبنان.

أحنى رأسه ولزم الصمت.

وكانت صحيفة «التقدم» الصغيرة التى يعمل فيها برنار تصلنى فى البريد كل يوم مع الصحيفة اليومية الرئيسية فى البلد. وعادة ماكنت أكتفى بقراءة العناوين، وحتى هذه العناوين أصبحت تصيبنى بالدوار وأشعر أحيانا أن كل الداء القديم

سيرجع فاتركها مكوّمة على المكتب عدة أيام دون أن أنظر فيها. ولكن لفت نظرى فى الأيام الأخيرة أن صحيفة «التقدم» ظلت على مدى أيام تنشر احتجاجات كثير من المنظمات الإنسانية على ضرب المنازل والمستشفيات والأهداف المدنية فى بيروت، وعلى استخدام إسرائيل للقنابل الفوسفورية التى تسبب حروقها آلاما رهيبة لضحاياها قبل أن تقتل، والقنابل الخداعية التى تلقى على شكل دمى ولعب لكى تقتل الأطفال، والقذائف التى تفرغ الهواء حول المبانى وتقوضها على من فيها فى لحظات. كانت المنظمات الإنسانية تحتج على استخدام هذه الأسلحة التى يحرمها القانون الدولى، ولم تكن الصحيفة الصباحية التى تصلنى تشير من قريب أو من بعيد إلى هذه الأسلحة ولا إلى بيانات الاحتجاج عليها.

قلت لبرنار ـ ومع ذلك فهناك شىء ناقص فى نشركم لهذه البيانات. أنتم لم تسألوا أبدا من أين تأتى هذه الأسلحة التى تستخدمها إسرائيل، لم تقولوا كلمة واحدة عن أمريكا التى تعطيها هذه الأسلحة لكى تجربها فى لبنان .

نظر إلىّ برنار وقال بلهجة ساخرة ـ وتريدنا أن نذكر أمريكا أيضا؟.. ألا تكفى رسائل الاحتجاج التى تصلنا من أصدقاء إسرائيل والتى ننشرها كل يوم؟.. هل تريد رسالة احتجاج من أمريكا نفسها؟.. تريد أن تغلق الصحيفة؟

ثم استدرك ـ ولو أن هذا حل جيد جدا، لو أغلقت الصحيفة.. لن أحتاج إلى شهادة طبية!

خطر فى بالى شىء فسألته: أنت الذى تحرر هذه الأخبار يا برنار؟

لم يرد. ورفع كوب البيرة إلى شفتيه قبل أن يكتشف أنه فارغ فأعاده ثم قال بلهجة فخمة :

ـ صحيفة التقدم! أفانتى! أفانتى.. «إلى الأمام إلى الأمام!..» ألا ترى أننا نفعل أشياء رائعة!.. نهاجم بمنتهى الشدة العنصرية فى جنوب أفريقيا، وندافع بحرارة عن حقوق النساء فى العالم، ونكتب مقالات تفيض عطفا على بلاد العالم الثالث، ونحن تقدميون بالفعل! ولكن تعال، حاول مرة أن تكتب مقالا حقيقيا عن

دورنا نحن فى أزمة هذا العالم الذى نذرف عليه الدموع!.. تعال، حاول أن تعطى لما يحدث فى لبنان الاسم الذى يستحقه!.. إسأل كيف تكون هذه المجزرة اليومية حربا، وكأنه يمكن أن تكون هناك حرْب فعلا بين جيش جرار يملك أحدث الطائرات ويلقى أفتك القنابل من الجو ومن البحر على مدينة يحاصرها ولا تملك طائرة واحدة ولا جيشا ولا أسطولا. إسأل، كيف تكون حربا أن يدافع مئات أو بضعة آلاف عن هذه المدينة بالبنادق والرشاشات أو حتى بالمدفعية والدبابات؟ أين هى الحرب فى هذه المذبحة اليومية؟ إسأل!

ـ ألا تستطيع أن تسأل أنت ؟

قال بلهجة قاطعة ـ لا . لا أستطيع أن أسأل. هل رأيت أحدا فى صحفنا استطاع أن يسأل؟

ولم أقل له إننى حتى فى الصحف العربية لم أجد من يسأل هذا السؤال. كانوا فى صحفنا أيضا يتكلمون عن تطورات «الحرب» وعن مفاوضات «السلام»، وعن بطولة الفدائيين الصامدين فى بيروت، وينشرون قصائد حرة وقصائد عمودية كأن هناك بالفعل حرباً حقيقية بين بلدين أو بين جيشين.

وضعت إيلين كوب البيرة صامتة أمام برنار وسألتنى بلهجة فاترة عما أريد أن أشرب. ولما طلبت القهوة انصرفت دون كلمة. تابعها برنار ببصره وقال :

ـ مسكينة!.. زوجها يمر بأزمة روحية!

فقلت بمرارة : ـ وأنت أيضا على مايبدو يا برنار!.. وأنا كذلك.

قال برنار ـ أنا أمر بهذه الأزمة منذ أربعين عاما على الأقل !

ـ أربعون عاما !.. هل ذهبت أنت أيضا إلى الحرب الاسبانية؟

شرد ببصره لحظة وقال ـ لا، كنت صبيا صغيرا وقتها، ولكن الحرب الاسبانية هى التى أتت إلىّ .

نظرت إليه مستفهما فأكمل : كان أبى عاملا وعضوا فى حزب العمال الثورى،

وأقاموا فى مدينتنا معسكرا للاجئين الاسبان من الحرب، فتطوع أبى مع من تطوعوا للعمل فى هذا المعسكر، وكنت أذهب معه أحيانا. مازالت محفورة فى ذهنى تلك القصص التى سمعتها فى المعسكر. فظائع القتل والتعذيب التى ارتكبها الملكيون والجمهوريون على السواء. ربما يكون هذا هو السبب فى أننى لم أنضم فى حياتى إلى أى حزب، ربما يكون هو السبب فى أننى قررت عندما كبرت أن أعمل بالصحافة، قلت لنفسى قد يساعد فى شىء أن تقول الحقيقة. قد يتعلم الناس وقد يفهمون «ثم سكت لحظة وقال» تعال ! قل الحقيقة!

شرب جرعة كبيرة من الكوب الذى أمامه، ثم اندفع يقول فى شىء من الغضب

ـ لن يمنعك أحد، فنحن بلد حرا.. ولكن انتظر ما يجرى لك!.. ستظل طول عمرك من «التقدم» إلى «التقدم»!.. من صحيفة صغيرة إلى صحيفة أصغر. سيتحملونك ويشفقون عليك ..

ثم لوح باصبعه فى وجهى منبها ـ على ألا تتجاوز حدًك مع ذلك!.. يجب أن تعلم أين تقف.

قلت فى حزن :

ـ إذن فهذا هو الحال فى الدنيا كلها !

ـ لا أعرف الدنيا كلها. أعرف نفسى فقط. أعرف الآمال الكبيرة التى بدأت بها وأعرف كيف انتهت. أعرف أن ابنى نفسه الذى حاولت أن أعلمه منذ الصغر كل ما عرفته عن الدنيا، الذى قلت سأربيه على الحقيقة يعمل الآن تاجرا للسلاح. يبيعه للأفريقيين لكى يقتلوا بعضهم بعضا ويكدس هو مئات الألوف. لا أدرى، ربما يكدس الملايين. أعرف أنى عندما حاولت أن أمنعه سخر منى وتشاجر معى. قال إنى أريده أن يصبح فاشلا مثلى! لم يكن ينقص إلا أن يصفنى بأننى أبله. لا أتلقى منه حتى بطاقة صغيرة فى عيد الميلاد!.. ومن يدرى ماذا سيفعل جان ـ باتيست عندما يكبر ؟

ولزم الصمت من جديد. وكان حديثه قد ملأنى بالهم فأردت أن أنصرف ولكنه

عندما لاحظ أنى أهم بالقيام ، قال

ـ انتظر.. أنت لم تشرب قهوتك بعد.

وكانت إيلين لحظتها تضع أمامى فنجان القهوة متجهمة الوجه فقال لها برنار بهدوء

ـ هذا السيد يا إيلين لا علاقة له بما حدث لزوجك.

نظرت إيلين إليه ملياً فكرر بطريقة جازمة ـ لا علاقة له!

انصرفت دون كلمة وسألته فى دهشة : ما الذى جعلك تقول هذا ؟

ـ لأنى أعرف أنه لاعلاقة لك!

ثم استرد شيئا من حيويته وقال بضحكته المعتادة: يجب أن تكون سعيدة مع ذلك!.. كانت تشكو دائما من أن يوسف يشرب النبيذ منذ أن يستيقظ فى الصباح وحتى ينام فى المساء، وهو الآن لايذوق الخمر. تغيير روحى كبير.

سكتُّ آملا أن يكمل حديثه ولكنه قال لى :

ـ لا تتطلع إلىَّ هكذا!! أنا لا أعرف شيئا عن يوسف ولا عن تغييره الروحى. ولكنى أعرف شيئا عن الأمير.

انتبهت تماما عندما ذكر الأمير، ولكنه تردد لحظة قبل أن يقول : من واجبى أن أقول لك. أعتبر نفسى مسئولا لأننى أنا الذى قدمتك إلى يوسف وطلبت منك أن تساعده فى العمل فى هذه الصحيفة مع هذا الأمير، وقلت لك إنه أمير تقدمى.

ـ وما الذى جدَّ؟ أليس بالفعل تقدميا؟

ـ يتوقف هذا على ماتعنيه بالكلمة. ولكن أرجو على أى حال ألا تكرر ما سأقوله. إن صحت مصادرى فهناك طبخة كبيرة يعدونها الآن لمنطقتكم وما يجرى فى لبنان هو مجرد بداية. هناك إعادة ترتيب كاملة للأوراق ومفاوضات سرية بين كل الأطراف، مفاوضات بين دول وبين أجهزة وبين منظمات وسموّه ضلع رئيسى فيها..

قلت بعد سكتة قصيرة ـ لست مندهشا.

ـ هل كنت تعرف إذن؟

ـ لا، لا أعرف أية تفاصيل وليست عندى مصادر كمصادرك ولكن كانت عندى شكوكى فى هذا الأمير وفى علاقاته منذ البداية وحذّرت يوسف منه.

تفرس فى وجهى وهو يقول : ـ أخطأت فى ذلك ياصديقى. هؤلاء الناس لايحبون أن يكتشف عنهم أحد أى شىء، والأفضل إذا اكتشف أحد شيئا أن يصمت!

★★★

لم استغرب بعد ماسمعته من برنار من فشل محاولاتى فى الاتصال بالأمير حامد.. غيرْ أنى أخفيت كل ماسمعته عن بريجيت. لم أذكر الأمير قط. تمنيت أن تظل على اقتناعها بأن كل ماحدث منه هو مجرد محاولة لاستعراض ثرائه. عرفت أنها لو شكت فى أن هناك شيئا آخر وراء المسألة ـ لو عرفت أن الأمير ربما كان يجس نبضها ليصل عن طريقها إلى ما أعرفه أنا أو ليستخدمها كسلاح ضدى ـ فسيفتح ذلك الجروح القديمة. الجروح التى حاولت أن تداويها بالهرب إلى هذه المدينة والتى قد تهرب الآن منها. وكنت أعرف أن ما أفعله ليس فيه شىء من الأمانة وأعرف أنى أنانى، ولكنى لم أحتمل فكرة أن أفقدها.

ودفعنى الاحساس بالخطر إلى أن أتشبث بها وأغوص أكثر فأكثر فى الدوامة التى تجرفنا معا، تحولت الموجة إلى طوفان عارم يغمر الليل والنهار معا، وكنا نتقلب فى هذا الطوفان دون أن نضيع فيه، نندمج معا فى موجة واحدة، فى قطرة واحدة لاتنفصل .

وهل كنت أنت أيضا يابريجيت تشعرين بالخطر؟.. كنت تعطين من نفسك دون تردد، نلج معا آفاقا لم نرتدها من قبل فى لهفة محمومة لانريد أن تضيع دقيقة. وكنت أحتضنك أتحسس كل جزء من جسمك كأني لو تركتك يدى فستتسربين من

بين أصابعى، كأنى لو لم أضمك بين أحضانى فستتلاشين فجأة. أتحسسك كأن أصابعى ستخلد إلى الأبد هاتين الوجنتين حين تتضرجان بالرغبة، حين ترتسم فيهما تلك الخطوط وأنت فى قمة النشوة وكأن وجعا لايحتمل يتخلل فرحة لاتحتمل، أتحسس الشفتين اللتين تنفرجان فى تأوه يرتعش له الجسد كله، والعنق الأبيض الطويل الذى يبرز فيه عرق واحد أزرق حين تصخب فيه دماء الحب. أتحسس كتفيك الملساوين المدورين، أريد أن أثبت فى أصابعى لحظة انتفاضهما تلك لتظل حية إلى الأبد، حين ينهض صدرك شامخا مستنفرا وأنت تلهثين. أمرُّ بيدى على ذراعيك الجميلتين، على ساقيك البيضاوين الطويلتين، على هاتين القدمين الرقيقتين الناعمتين، اللتين تحملانك فوق الأرض بخفة، كجناحى حمامة بيضاء. أمر بشفتى على جبينك، أتحسس عند منبت الشعر زغبا يدغدغ كل حواسى. أقبّل جفنيك وأمرُّ بجانب يدى على تلك الرموش الطويلة الناعمة. أتأمل عينيك الزرقاوين حين تنيران بلمعة الصبوة .

أريد أن أخلدك فى أصابعى وفى يدى وفى شفتى. أخشى فى قمة الحب من الفقد. أخشى ونحن قطرة واحدة فى الموج أن ننفصل.

وشعرت أنت رغم كل شىء أن هناك شيئا غير عادى يحدث. وقلت فى لحظة كنت أغمس فيها شفتى فى المكان الذى أحب، فى تلك الفجوة بين رقبتك وكتفك وأنا أمسّد غابة شعرك الذهبى، أغطى بها وجهى، قلت فى ضحكة صغيرة وأنت تتحسسين بدورك شعرى الخشن، الذى كان ملمسه يثيرك .

قلت ـ أصبحت شرها هذه الأيام !.. ما الذى جرى لك؟

ولم أرد، كنت مخدرا بالحب وبعطر جسدك.

فأكملت ضحكتك وقلت : ليس لأنى أقل شرها!.. ولكنى أخاف عليك.

قلت دون أن أرفع رأسى: طبيبى يقول إنى لم أكن فى أى وقت أحسن منى الآن.

ـ أرأيت؟ ألم أقل لك إنا نجونا بالحب؟ ومع ذلك فيجب أن نأخذ حذرنا . يجب

أن نتعقل قليلا.

وشعرت أنت بجسدى يتوتر قليلا بعد كلمتك، فرحت تربتين بيدك على ظهرى وتسألين :

ـ هل أغضبتك؟

ـ نعم !.. نقص حبك!. تكررين كلاما كالذى يقوله العشاق قبل الانفصال!

فقلت وسط قبلات متقطعة ـ كم مرة قلت هذا الكلام؟.. هل يبدو علىّ أنى سأنفصل عنك؟.. لن أسمح لك أنت حتى أن تنفصل عنى لو أردت!.. أنت ملكى.. كنت ضائعا منى وقد وجدتك. أريدك أن تبقى ملكى طويلا. ملكى إلى الأبد.

فتمتمت وكأنى أكرر عبارة محفوظة : لو أن الزمن لايكون!..

ولكنى لم أذكر بالضبط متى سمعت هذه العبارة.

★★★

فى خلال تلك الأيام المشحونة ، تلقيت رسالة رقيقة من رئيس التحرير فى القاهرة.

كنت قد أرسلت إليه إيصالات المستشفى، فكتب فى رسالته إن الصحيفة ستسدد تكاليف العلاج وتمنى لى أن أقضى فترة نقاهة مريحة، لكى يعود إلى الصحيفة قلمى «الذى يعتز به»!.. ونصحنى مرة أخرى بألا أرهق نفسى وبألا أعود إلى الكتابة إلا عندما استرد عافيتى تماما. وقال إنه عمل بنصحيتى فلم يبلغ أحدا فى الصحيفة بمرضى لكى لايصل الخبر إلى الأسرة والأولاد.

أثَّرت فى نفسى رسالة رئيس التحرير بالفعل. كنا زميلين قديمين لم تتوطد الصداقة بيننا أبدا لأن فكرته عن الصحافة كانت تتلخص فى أن كل سلطة فى الحكم على حق حتى ترحل، وهو يضع قلمه فى خدمتها. لكنه كان شخصا ودودا مع زملائه لا يتردد فى تقديم الخدمات البسيطة التى يستطيعها بحكم منصبه. وحمدت له بالذات تلك الإجازة المفتوحة التى قدمها لى لكى أسترد صحتى. فقد

أراحتنى من متابعة الصحف وكتابة الرسائل الشهرية والبحث عن الأخبار الطريفة أو عن أى أخبار أخرى.

ولكن كان من الصعب أيامها ألا أتابع مايحدث فى لبنان. وكانت الأخبار مثل الضربات المتلاحقة على الرأس. تدمير وسط بيروت بكل أنواع القنابل، ٢٥٠ قتيلا فى غارة واحدة من قنبلة فراغية. الموافقة على ترحيل الفدائيين من لبنان.. وصول قوة أمريكية للإشراف على ترحيل الفلسطينيين.. إلخ. وكنت أتابع أيضا تطور حملة صحيفة التقدم على انتهاك إسرائيل لقوانين الحرب الدولية واستخدامها للأسلحة المحرمة. وأقرأ أيضا رسائل الاحتجاج الغاضبة التى يبعث بها أنصار إسرائيل إلى الصحيفة. وكانت أعنف رسالة قرأتها بتوقيع «أ . ف . دافيديان، رجل الأعمال» الذى كتب يقول إن الصحيفة تنزلق فى طريق خطر وإنها تروج الأكاذيب المختلقة التى تذيعها منظمة التحرير. وقال إن الحرب فى لبنان هى باختصار لطرد المخربين الذين يقتلون نساء إسرائيل وأطفالها فى الجليل. وذكّر الصحيفة بأن ملايين النساء والأطفال من اليهود قد ماتوا فى معسكرات النازيين المجرمين فى أوشفيتز وبوخنفالد والمعسكرات الأخرى «فهل تريدون أن يستمر اليهود فى دفع هذه الضريبة إلى الأبد؟.. لايحتاج الشعب اليهودى إلى دروس فى الأخلاق أو فى الإنسانية من أحد».

وقلت لنفسى بعد أن قرأت هذه الرسالة.. من يقرأ هذا الكلام ياسيد دافيديان يعتقد أنك أنت أيضا دفعت الضريبة فى أوشفيتز!.. أما أغلب ظنى فهو أنك كنت أيامها فى قصر كبير فى حى «الظاهر» فى القاهرة أو فى «ستانلى» فى الإسكندرية، تعيش عيشة المليونيرات وتفكر فى الولائم والصفقات أكثر من تفكيرك فى جرائم النازيين.

ومع ذلك فكل شىء يصلح، الحديث عن النازية والخيل العربية وهدم مبانى الفقراء القديمة والتبرعات لإسرائيل. كل شىء يصلح مادمت تنجح!

موت طفل واحد هو موت للدنيا كلها بالطبع، ومع ذلك فلن يسألك أحد كم طفلا

قتلوا فى الجليل: خمسة أو عشرة؟.. وكم ألفا من الأطفال أبادتهم إسرائيل فى لبنان ومن قبلها فى فلسطين ؟.. ولم لا؟.. لست وحدك!

كانت الأخبار فى الصباح تتحدث عن سقوط مئات القتلى والجرحى كل يوم فى المدينة المحاصرة، فينقل تليفزيون البلد فى المساء احتفالا مهيبا مليئا بالمراسم الدينية وبالدموع وبالغضب لدفن أربعة جنود إسرائيليين سقطوا فى «الحرب». لا يحزن العرب لقتلاهم بالطبع! ولم لا؟ هناك بشر حقيقيون وبشر لاحاجة لهم على الإطلاق. وكنت قد قرأت فى صحيفة «التقدم» أيضا هذا التصريح لبشير الجميل، المرشح رئيسا للبنان، وقال فيه «هناك فى منطقتنا شعب لالزوم له. اسمه الشعب الفلسطينى»!

وعرفت معظم الأخبار من التليفزيون فى أوقات غياب بريجيت. تابعت ابتسامات المبعوث الأمريكى إلى لبنان فيليب حبيب وتصريحاته عن نجاح خططه لوقف إطلاق النار. وحاولت ألا أفكر فى أن أمريكا هى التى زودت إسرائيل بالطائرات والقنابل التى تقتل وتشعل النار، وهى نفسها التى ترسل المبعوث لوقف إطلاق النار. حاولت ألا أفكر فى أنها هى القاتل وهى المعزّى. وما فائدة مثل هذه الأفكار مادامت هى نفسها أيضا التى توسطت لترحيل المقاومة من لبنان؟.. مادامت قد قررت وأرسلت بالفعل تلك القوة العسكرية مع حلفائها لنفى المقاتلين الفلسطينيين من هناك ووقعنا نحن معها على ذلك وتصافحنا؟.. مادام كل شىء قد انتهى وبدأت المقاومة تخرج من لبنان؟

ولكن كاتبا واحدا فى البلد لم يطق أيامها صبرا. أخيرا فعلها برنار!

شد بصرى فى ذلك الصباح عنوان العمود الذى كتبه «المعصومون» وكدت أكذّب عينى منذ بدأت أقرأ العبارات الأولى فى المقال : «أصاب بلدنا الحر مرض غريب هذه الأيام. أصابه الخرس فلم ينطق شيئا عن الجرائم ضد حقوق الإنسان مادامت تأتى من الدولة العبرية. يرجع صحفيون من هناك يريدون أن يحكوا عن الفظائع التى رأوها لكن مايكتبونه لاينشره أحد. أليس كذلك ياعزيزى لورانس؟..

تقول إن هناك أصواتا ترتفع على استحياء؟.. ولكن انتظر!.. سيأتى الرد عليها فورا فى أبواب بريد القراء المفتوحة على مصاريعها فى كبريات صحفنا. تلك الأصوات الشجاعة هى بالطبع معادية للسامية!

سيشهرون فى وجهك مسألة أفران الغاز الهتلرية. تقول إنك لم تكن قد ولدت أيام جرائم الإبادة هذه؟.. لا يهم. أنت مسئول عنها أدبيا. فإسرائيل من المحرمات. إسرائيل معصومة لايمسها أحد!.. وكل مايفعله ذلك البلد فهو حسن.

ولكنك ستقول إنّه لاتوجد جرائم رديئة وجرائم حسنة. لاسيما إن كان ضحاياها من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى على أسرّة المستشفيات..

إذن فأنت يسارى متطرف مهيج وعميل لمنظمة التحرير..»

• واستمر المقال بهذه اللهجة الغاضبة ثم ذيله برنار بعبارة تحت توقيعه قال فيها «أفهم بالطبع بعد هذه الكلمة أنى معاد للسامية فلا داعى لأن يكتب أحد لكى ينبهنى إلى ذلك»!

لم أقرأ فى حياتى فى صحيفة فى البلد كلاما من هذا النوع. وقلت لابد أن أقابل برنار لأعرف منه ما الذى حدث بالضبط وما الذى قالته لورانس التى يشير إليها فى كلمته. وفكرت أن أطلبه وأحدد معه موعدا غير أنى تذكرت تجربة لقاء الممرضة النرويجية ماريان فقررت أن أؤجل ذلك. وكنت قد اتخذت قرارا حاسما آخر فى تلك الأيام هو ألا أشاهد على شاشة التليفزيون خروج المقاتلين الفلسطينيين من بيروت أو أن أقرأ شيئا عن الموضوع، ولما دخلت إسرائيل بيروت الغربية بعد مقتل بشير الجميل فلم تجد غير حفنة من كتائب «المرابطين» الناصريين يردون على المدفعية والدبابات بالبنادق قررت ألا أفتح التليفزيون على الإطلاق. قلت هذا يفوق حتى تعذيب الذات.

غير أنى لم أستطع الهرب طويلا. ففى المساء نفسه الذى قرأت فيه كلمة برنار جاءتنى المكالمة التليفونية. أيقظتنى من نوم قلق بعد الظهيرة. كان هناك صوت غير واضح يتكلم اللهجة اللبنانية.

ـ حضرتك الأستاذ..؟

ـ نعم .

ـ معك سامى من الصليب الأحمر اللبنانى.

ـ أهلين .

حاولت أن أتذكر بسرعة : هل أعرفه؟

لكن سامى قال بصوت متهدج : معى صاحبك المصرى الأستاذ إبراهيم يريد أن يتكلم معك. حاول أن تهدئه الله يرضى عليك!

قلت فى لهفة : إبراهيم

فجاءنى صوته من الطرف الآخر متحشرجا ومتقطعا : اسمع توجد جبال من... جبال!

ـ إبراهيم!.. ارفع صوتك قليلا من فضلك. أنا لا أسمعك . كيف حالك؟

ـ ملعون حالى! قلت لك توجد جبال من الجثث. ويوجد ملايين من الذباب. الذباب مازال يغطى عينى، وتحت جلدى رائحة الموت.. أكتب أكتب ما أقوله لك بسرعة .

فتشت بحركة آلية على المكتب عن قلم وأوراق وأنا أهتف فى السماعة

ـ لا أفهمك يا إبراهيم . ماذا تريدنى أن أكتب؟ أى ذباب؟

رد إبراهيم فى صراخ غاضب. أكتب ما أقوله لك. فى صبرا تغطى جبال من الذباب جبالا من الجثث. لا، أشطب هذا. أشطب الذباب، ما أهميته؟ لا أستطيع أن أفكر. أنتظر لحظة.. ولكن الذباب مازال بالفعل يطن فى أذنى... آسف. ولكن لم يعد هنا مكان أكتب فيه. بعد أن خرجت المقاومة أغلقوا صحفنا كلها. أريد أن أقول لك ما رأيته قبل أن يضيع الوقت. لابد أن تسجله. انتظر لحظة.. انتظر.

ساد الصمت لحظة قبل أن يأتى صوت سامى.

ـ رجوتك يا أستاذ أن تهدىء إبراهيم. حالته صعبة!.. كلنا والله حالتنا صعبة بعد ما رأيناه فى صبرا وفى شاتيلا. ولكن الأستاذ إبراهيم مريض بالسكر كما

تعرف.. يمكن أن يضيع فى أزمة لو استمر هكذا. ها أنذا أقولها أمامه بالصوت العالى، يمكن أن يضيع فى أزمة لو استمر هكذا...

ولكن إبراهيم اختطف السماعة وجاء صوته صارما وشعرت أنه يبذل مجهودا جبارا لكى يتمالك نفسه : إسمع. لايوجد وقت. لن أجد حتى التليفون الذى اتصل بك منه لو ضاعت هذه الفرصة. ماذا نشروا عندكم عما حدث فى صبرا وشاتيلا؟

ـ لم ينشروا شيئا، ما الذى حدث؟

صرخ ـ كيف؟ ولا حتى فى أوروبا؟ منذ ثلاثة أيام تدور المجازر هنا. منذ دخلت إسرائيل إلى بيروت والمجازر تدور. كيف لم ينشروا شيئا؟

أنا عائد توا من صبرا وهناك...

ولكن إبراهيم لم يكمل . كانت هناك صفارةْ طويلة وانقطع الاتصال.

ظللت أصرخ فى السماعة الميتة : إبراهيم! إبراهيم!.. ماذا حدث؟

ماذا حدث؟.. جريت أفتح التليفزيون. كان هناك مسلسل «دالاس».

تركت التليفزيون وفتحت الراديو. أدرت المؤشر بسرعة على المحطات . لم تكن هناك نشرة أخبار. كانت هناك موسيقى وأغان فى كل مكان. ولكن بينما أدير المؤشر بسرعة وبلا انقطاع إلى اليمين وإلى اليسار انقطع المسلسل فى التليفزيون. ظهرت مذيعة تقول بوجه جامد: وصلتنا توا رسالة خاصة من بيروت. ننصح الأشخاص الحساسين والمصابين بأمراض خطيرة بألا يشاهدوا هذه الرسالة.

صمت . ظلام على الشاشة. دون أى مقدمات يظهر مذيع أعرفه اسمه جان ـ باسكال. نحيل وفى وجهه وعينيه تعبير حزن غير محدد. الآن فى عينيه غشاوة ندية من الدمع. كان يرتدى القميص والبنطلون ومن خلفه بقايا بيت مهدم. كانت شمس، وكان عرق يتفصد من جبينه. ظلت الكاميرا مسلطة على وجهه فترة قبل أن ينطق.

قال بصوت حاول أن يجعله هادئا : سيداتي وسادتي المشاهدين.. في خلال عشرين عاما من العمل هذه هي الرسالة التي تمنيت ألا أنقلها إليكم..

يرتعش صوته مع ذلك وهو يقول : هذه أول مرة تدخل فيها الكاميرا إلى مخيم صبرا بعد المذابح ضد الفلسطينيين خلال الأيام الماضية..

تتجول الكاميرا بعد ذلك في صمت. تتجول وسط أزقة ضيقة. وسط بيوت مدمرة تبرز منها أسياخ حديد ملتوية وبقايا أثاث محطم ولكن لامظهر لأي حياة تتحرك. ثم تتمهل الكاميرا وهي تنقل الصور من بعيد.

أكوام من الجثث ملقاة على الأرض.

جثث وراء جثث. وجثث فوق جثث..

كومة لجثث مختلطة لرجال ونساء ملقاة على وجوهها وجنوبها وظهورها.

كومة أخرى ترتمي على ظهورها وسيقانها منفرجة، نساء وأطفال..

كومة ثالثة جثث رجال منتفخة كأن جلودها وثيابها ستنفجر في أي لحظة..

بحيرات دم متجلط تحت الرؤوس وحول الأجساد .

جثث أخرى لرجال وأطفال يحتضنون بعضهم البعض بسواعد ملتوية..

جسد محشور يتدلى نصفه الأعلى فقط من بين الأنقاض ورأسه منكس في الأرض، رقبته من الخلف مجزوزة بالعرض..

طفلتان متجاورتان، نصفهما العلوي عار.. حاول أحد أن يغطي نصفهما السفلي بصحيفة مفتوحة فلم ينجح ، تبرز السيقان الصغيرة منفرجة.

ترتعش الكاميرا عندهما وتقترب قليلا، واحدة من الطفلتين في مكان العينين فجوتان تجلط فيهما الدم.

كومة جثث ممدودة الأذرع إلى جوار جدار مهدم، كأنها تتسلق بعضها البعض.. في الجدار ثقوب رصاص وخطوط دم بالطول.. أصابع جريحة كانت تتشبث قبل السقوط..

جثث كأنها تسجد إلى جوار حصان أبيض يرتمي على جنبه وجرح كبير يشق

بطنه وقد انتفخ كفلاه وظل ذيله متشنجا.. إلى جواره عجوز أشيب تبرز ساقاه النحيلتان من جلباب أبيض، بجانبه عكاز تمتد يده إليه وفي رأسه ثقب مدمم.

فوق الحصان ذباب كبير، وفوق الجثث ذباب كثير.

يرن التليفون مرة أخرى فلا أمد يدى إليه. أظل مسمرا مكانى أتابع الصور على الشاشة.

تنتهى الرسالة القصيرة يقول جان ـ باسكال بصوته المتهدج لم نستطع أن ننقل لكم كل الصور التى شاهدناها فى صبرا وفى شاتيلا. بعضها لا تحتمله عين بشر.. يقول كلاما كثيرا لا أستوعبه.

أمد يدى شاردا إلى سماعة التليفون. هو صوت إبراهيم من جديد. يقول سأمليك الآن بسرعة. أخشى أن ينقطع الاتصال مرة أخرى. أكتب، فى صبرا وفى شاتيلا ذبحت إسرائيل والكتائب وجيش سعد حداد آلاف الفلسطينيين...

صرخت : آلاف؟.. يوجد من هذه الصور آلاف؟

لم يسمعنى إبراهيم. قال : هل تكتب؟.. معك القلم؟.. سأقول لك الوقائع واكتبها أنت بعد ذلك كما تشاء . عندما وصلت إلى صبرا كانت الجثث تصنع حواجز فى أزقة المخيم الصغيرة. حواجز يجب أن تعبر فوقها إن أردت أن تمر وأن تتجول فى المخيم. يجب أيضا أن تعبر رائحة الموت وسحابات الذباب. فى واحد من الشوارع كانت الأرض زلقة. غاصت قدمى. كان هناك جير طرى على الأرض يغطى حفرة كبيرة. ومن هذه الحفرة كانت تبرز رؤوس مهشمة وأذرع وسيقان مسودّة.

ـ ولكن كيف؟ كيف قتلوا كل هؤلاء؟

ـ بكل الأسلحة. بالرشاشات، بالبنادق، بالسكاكين، بالبلط، بالسيوف، بالخناجر، بالجرافات التى هدمت البيوت على من فيها من أحياء وأموات، بالدبابات الإسرائيلية التى كانت تدك المخيمات طول الوقت تفتح للجزارين الطريق، بالسحل فى الشوارع، ببتر الأعضاء..

سكت إبراهيم لحظة وكان يلهث. ابتعد.

قال سامي يائسا: ألا تستطيع يا أستاذ أن تهدئه؟.. هو يتجول حتى الآن بحريته ولكنى أقول لك إنه عاش بمعجزة. لولا أنه يشبه الأوروبيين ومعه تصريح مزور لقتله الإسرائيليون أو الكتائب منذ زمن. الرب يرحمنا!.. ولكن صدقه يا أستاذ. ما رأيناه هنا تهون جنبه رؤيا يوحنا!. من مات فى الحرب رحمه ربه. هنيا له من مات فى الحرب!

اختطف إبراهيم السماعة مرة أخرى. وقال وهو يحاول أن يكون هادئا : هل كتبت كل ما قلته لك؟

ـ نعم.. تقريبا كله.

ـ إذن اكتب هذا. فى مدخل المخيم بيت لصاحب محطة بنزين عجوز أعرفه اسمه مقداد، ذبحوه وذبحوا كل أسرته، أولاده وبناته وأحفاده وأزواج البنات، كلهم قتلوهم ذبحا، أحصيت بنفسى أربعين جثة فى بيت مقداد. كلهم جزروهم وبتروا أعضاءهم واغتصبوا كل النساء والبنات ثم تركوهن عرايا..

ارتفع صوت إبراهيم. لم يعد هادئا وهو يقول : رأيت زينب مقداد. كانت حاملا فى شهرها الأخير. شقوا بطنها وأخرجوا منه الجنين. مزقوا أطرافه ووضعوا ساقيه وذراعيه وجسده على شكل دائرة على صدر أمه بعد أن بتروا ثدييها، وضعوا رأس الجنين وسط الدائرة وكان الدم متجلطا وكان الدود والذباب يأكل فى الرأس المبتور..

تقيأت على الفور. خرج كل ما فى جوفى دفعة واحدة.

سمع إبراهيم سعالى وشهقاتى فأجهش بالبكاء لأول مرة.

وجاء صوت سامى فى السماعة يكرر مؤنبا: طلبت منك يا أستاذ أن تهدىء إبراهيم، فماذا فعلت؟

ومن بعيد كان صوت إبراهيم كأنه فى حلقة ذكر: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله!

وكنت أقول بصوت متحشرج وسط السعال : أستاذ سامى - أعطنى .. أعطنى.. رقم التليفون.. من فضلك أعطنى..

ولكن كل الرد من الناحية الأخرى كان صفارة طويلة.

فى التليفزيون كان مسلسل دالاس مازال يدور دون صوت . فى أذنى كان إبراهيم يتكلم وكان جان باسكال يتكلم وكنت أحاول أن أنظف الأرض والمكتب بمنشفة وكان جرس الباب يدق بإلحاح وعندما فتحته وجدت بريجيت.

دخلت وهى تترنح وتمد يديها أمامها كالضريرة، وكانت عيناها ميتتين بالفعل وقالت فى همس متشنج : أرأيت؟.. أرأيت؟

أشارت بيدها إلى التليفزيون وقالت : كنت فى المقهى المجاور ورأيت الصور.. أرأيت؟

ثم ارتمت على صدرى وهى تكرر كلمتها : أرأيت؟.. قتلوا كل أطفال العالم! أرأيت؟

وكان جسمها كله ينتفض وهى تتكىء على كتفى.

وكنت أنا أيضا أنتفض.



الفصل الحادى عشر

صعـــــود الجبـــــل

سجلت كل ما قاله لى إبراهيم.

قلت أقسم أن أكتبه ، أقسم أن أكتب ولو كان هذا آخر ما أفعله فى حياتى . ولو اضطررت أن أحمله على لافتة وأمشى به فى الشوارع .

لكن أول شىء فعلته فى الصباح كان هو أن توجهت إلى مكتب الصليب الأحمر فى المدينة .

فكَّر كثيرون مثلى ووجدت المكتب مزدحما بالعرب . وكانوا يتزاحمون حول موظف واحد فى حجرة الاستعلامات ، وسمعت نشيجا كأنين متصل يصدر من ركن فى الغرفة يخفى الزحام مصدره . وراح المتجمعون حول الموظف الجالس خلف مكتبه يبرزون صور نساء وأطفال وهم يحاولون جميعا أن يشرحوا له وهو يدون فى ورقة ويصيح : الأسماء !.. الأسماء أولا !

رأيت موظفا يقف فى ركن من المكتب وحوله أشخاص آخرون يتكلمون جميعا فى وقت واحد وبأيديهم أيضا صور وظروف مغلقة ، وظل هو يشير طوال الوقت إلى لافتة مكتوبة بعدة لغات من بينها العربية : «الاتصالات التليفونية والبريدية ببيروت مقطوعة. أترك استفسارك ورقم تليفونك وسنتصل بك بمجرد أن تصلنا المعلومات» .

زاحمت الآخرين حتى وصلت إلى هذا الموظف وقدمت له بطاقتى الصحفية، رفعها وألقى عليها نظرة ، وأشك أنه فهم أى شىء وسط الضجة التى تحيط به

لأنه ردّ إلىّ البطاقة واكتفى بالإشارة إلى اللافتة المعلقة ثم انصرف عنى إلى غيرى. لكنى أمسكت بذراعه وقلت له : من فضلك ! .. استمع إلىّ أنا صحفى وبالأمس تلقيت مكالمة من مكتبكم فى بيروت منْ شخص اسمه سامى ..

ولكن آخرين كانوا أيضا يجذبونه من ذراعه ويوجهون له أسئلة فيرد «حالا .. حالا..»

قلت فى يأس : أريد أن أعرف كيف أتصل بسامى فى بيروت !.. هناك زميل صحفى فى بيروت .

ردّ على فى بطء ليشعرنى أنه كان يتابعنى وقال ، فهمت ، ولكن أؤكد لك ياسيدى أن جميع الاتصالات ببيروت مقطوعة منذ خمسة أيام مركزنا الرئيسى يتصل بالأمم المتحدة و ... وبالجهات الأخرى لفتح الاتصال بالمكتب من جديد. أنت صحفى وتستطيع أن تتأكد مما أقوله . أنا لا أعرف كيف اتصل بكْ موظفنا من هناك ، ولكن اترك اسم صديقك ورقم تليفونك ...

ثم تحول إلى غيرى وكانت هناك سيدة بدينة تربط رأسها بإيشارب مشجر تقف إلى جوارى صامتة ومستندة على عكاز . سألتنى.

– ماذا قال لك يا ابنى ؟

شرحت لها فأخرجت من صدرها كيسا جلديا صغيرا فتحته وقدمت لى صورة مهترئة لوجه شاب وسيم فى العشرين من عمره تقريبا اعتنى جيدا بتشذيب شاربه وقالت :

– هذا هو ابنى ، موجود فى صبرا . إسأله الله يرضى عليك إن كانت عندهم أخبار عنه . هو الوحيد الذى عاش لى ، بقيتهم ماتوا فى الحرب ..

كررت لها ما قاله لى الموظف، ولم أملك نفسى أن أسألها : وأنت ؟ ما الذى جاء بك إلى هنا ؟ ..

أشارت إلى ساقها . لم تكن هناك ساق . قالت

– نقلونى هنا ليعالجونى ، خيبة الله على ! .. خيبة الله على إن كانوا قد حكموا علىّ أن أعيش ويموت ولدى الباقى ..

لم تكن تبكى كانت تنظر نحـــوى وهى ترفع فى وجـــهى الصـــورة بيـــد ترتعـش وتكرر «خيبة الله على» . ثم سكتت وظلت شفتاها منفرجتين.

ولكن فى تلك اللحظة ارتفع صوت المرأة المختفية خلف الزحام وهى تقول بصوت مبحوح فى نداء عادى ، كأنما بشيء من الدهشة لا أكثر : يا ولدى ! .. يا كل الشباب!..

وصمت المكتب كله فجأة وتحولت الوجوه إلى الناحية التى صدر منها الصوت وسرت قشعريرة فى بدنى حين سمعت ذلك النداء . وأحنت السيدة البدينة رأسها وراحت تتطلع إلى الصورة وقد انطلقت دموعها الحبيسة تغمر خديها وهى تتمتم بدورها بصوت لا يكاد يبين .

- يا ولدى !.. يا كل الشباب ! ..

أسندت ظهرى إلى الحائط وقد انتابنى دوار خفيف وأنا أتطلع إلى وجهها وإلى الوجوه الأخرى فى المكتب. ولكنى انتبهت على الفور ، مددت يدى إلى السيدة واسندتها حتى وصلنا إلى المكتب ، دونت اسمها وعنوان المستشفى الذى تعالج فيه عند الموظف. وتركت اسمى واسم إبراهيم ثم غادرت المكتب.

وفى هذا اليوم والأيام التى تلته كنت أقرأ كل ما تكتبه الصحف . قالت إسرائيل فى البدء إنها لم تكن تعلم بما يدور فى صبرا وشاتيلا ، ولكن الصحف العبرية نفسها سخرت من هذه الحجة البليدة فاضطر رئيس الوزراء (بيجين) أن يقول «أغيار يقتلون أغيارا ويتهمون الإسرائيليين» !.. ألقى المسئولية كلها على الكتائبيين . قال إنهم تسللوا إلى المخيمات من وراء ظهر إسرائيل وانتقموا من الفلسطينيين بعد قتل زعيمهم بشير الجميل، الذى لم يعرف أحد مع ذلك من الذى قتله . لكن هذا الادعاء لم ينفع أيضا . واضطر وزير الدفاع (شارون) أن يعترف فى البرلمان بأنه هو الذى أدخل الكتائبيين إلى المخيمات لتطهيرها من (المخربين). قال إنه فعل ذلك لأنه لم يرد أن يدخل جيش إسرائيل إلى المخيمات حرصا على الأرواح البشرية ! .. كان يقصد أرواح الجنود الإسرائيليين بالطبع. ولكنه قال إنه لم يأمر بالمذبحة ولم يسمع بها .

ولم ينطل ذلك على أحد أيضا . وظلت الحقائق عما فعلته إسرائيل تتكشف يوما بعد يوم وأسقط الارتياع مما حدث فى المخيمات كل التحفظات فراحت الصحف تهاجم إسرائيل وتتهمها دون مواربة . ولكن صحيفة (الوطْن) الكارهة للعرب باستمرار، شذت عن ذلك وراحت تهوّن من الجريمة ومن عدد القتلى وتقول إنها جزء من الحرب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، وإنه لا داعى للمبالغة فهى ليست المجزرة الوحيدة التى جرت هناك . كان دفاعها عن إسرائيل يفوق دفاع بيجين نفسه. أما افتتاحيات الصحف الأخرى فكانت كلها تشبّه ما جرى فى صبرا وشاتيلا بجرائم النازيين. وكتب (برنار) يقول فى افتتاحيته إن كل الجرائم التى ارتكبها هولاكو وأتيلا وهتلر فى سنين ، من تفنن فى القتل والحرق والاغتصاب والتعذيب نجحت إسرائيل وحلفاؤها فى اختصارها فى أربعين ساعة فقط.

وكنت أذهب كل يوم إلى المطار . أقام الصحفيون هناك ما يشبه مركز العمليات، وكنا ننتظر كل طائرة تأتى من دمشق أو من قبرص أو أثينا ، ننتظر أى زميل عائد من بيروت أو أى دبلوماسى أو أى شخص يمكن أن يكون قد رأى صبرا وشاتيلا بعد المذابح . نبحث عن أى إنسان سمع شيئا من شهود عيان عما جرى فى كابوس الأيام الثلاثة . واختفت حتى المنافسة الصحفية التقليدية، فكان كل من يعرف خبرا أو يتصل بأى مصدر يبلغ الباقين بما عرفه. بدت وجوه الصحفيين أيامها متجهمة ، تغالب نوعا من الإحساس بالعار ، وكأنما هم أيضا قد شاركوا فى المذبحة أو كانوا مسئولين عنها كأنما يجب أن يكفروا عن ذنبهم بأن يتكلموا أخيرا ويقولوا كل الحقيقة التى يعرفونها . وكانت الشهادات التى نستمع إليها تكشف عن هول يتجاوز الخيال ، ولكن المراسلين قرروا دون اتفاق فيما بينهم ألا يعملوا هذه المرة حسابا لمشاعر القراء وألا يخففوا من بشاعة ما يستمعون إليه . حتى رؤساء التحرير كانوا يتركون ما يكتبه الصحفيون كما هو فى أغلب الحالات .

كنت أكتب كل ما أعرفه ، وأرسل فى كل يوم رسالة للصحيفة فى القاهرة بما

أسمعه فى البلد ، وبردود الفعل وبأقوال الصحف . وبدأت أيضا أبعث لأول مرة مقالات للصحف العربية التى تصدر فى أوروبا ، ولم أكن أهتم بمتابعة ما ينشرونه منها وما لا ينشرونه . كان المهم أن أكتب أكبر كمية أستطيعها ، فلا بد أن يتسرب منها شىء فى النهاية .

والتقيت فى هذا المركز الصحفى المرتجل بأنطوان، رئيس جمعية الصداقة الفلسطينية فى البلد . كان شابا طويلا يضع حول رقبته باستمرار الشال الفلسطينى المنقّط وقال لى إنهم سينظمون بعد أيام مظاهرة فى المدينة مع بعض الأحزاب اليسارية ، وسألنى إن كان يمكن أن أساعد فى ذلك . قال إن المظاهرات التى تنظمها تلك الأحزاب لا تضم فى العادة غير عشرات من الأشخاص ، ولكنه يتمنى لو تكون المظاهرة هذه المرة كبيرة . وأشار إلى صورة بعرض صفحة فى إحدى الصحف ، صورة لكومة من جثث أطفال محترقين ومتفحمى الوجوه وسط أنقاض بيت فى شاتيلا، وقال لى بانفعال: مظاهرة كبيرة بحجم هذه الجريمة ! .. ثم استدرك : ولو أنه لو خرجت المدينة كلها في مظاهرة فلن تكون كبيرة بما فيه الكفاية .

وعدت أنطوان أن أحاول ما يمكن عمله . ولم يكن من حقى كمراسل صحفى معتمد أن أنظم مظاهرات أو أن أقوم بنشاط سياسى داخلى فى البلد ولكنى كنت أعرف شخصا متخصصا فى ذلك .

غير أن يوسف قال لى بما يشبه التحدى : لا بد أن أسأل الأمير أولا ! ..



كنت قد اتصلت به قرب الفجر لأضمن وجوده ، وذهبت إلى المقهى قبل أن يفتح أبوابه للزبائن . فجلسنا وحدنا فى المقهى الخالى . تغير شكله كثيرا عن آخر مرة قابلته فيها باللحية الشقراء المهوشة التى تحيط بوجهه دون تنسيق ، واستقبلنى استقبالا فاترا إلى حد ما ولكنه ظل مهذبا وهو يستمع إلىّ . قلت له إنى فهمت أن له اتصالات بأبناء الحى وربما ببعض الجمعيات يوم حدثنى عن

المظاهرة ضد دافيديان وربما يمكن أن يساعد على أن تضم المظاهرة أكبر عدد ممكن ، لكنه فاجأني بحديثه عن الأمير .

ســألت يوسف : ولكن ما علاقة الأمير بذلك ؟

ظل ينظر في وجهي ولكن جفنيه كانا يختلجان بحركة طفيفة وظلت حدقتاه تتحركان بعصبية . ثم قال ونبرة التحدى تزداد في صوته :

– الأمير أفهمنى أشياء كثيرة يا أستاذ ، أشياء كانت غائبة عنى ..

لم أكن أريد الدخول معه في جدل ، كنت أحتاج إلى عونه وهذا كل ما في الأمر .

فقلت بهدوء :

– افعل ما تشاء واسأل الأمير أو أى إنسان آخر . لا أظن أن أحدا سيعترض على أن تشترك في مظاهرة ضد هذه الجريمة ، أو على أن تساعد في تنظيمها . كل العالم أفزعته المذبحة، حتى في إسرائيل يتظاهرون ضدها إن كنت تشاهد التليفزيون ..

هز رأسه في وقار وأشار بإصبعه في وجهي وهو يقول :

– أرأيت يا أستاذ ؟ .. حتى في إسرائيل يتظاهرون ضدها ! .. فما معنى ذلك؟

قلت حريصا على ألا أفقد صبرى : ما معناه يا يوسف ؟

– معناه يا أســتاذ أن السياسة بحر غويط ! .. إسرائيل صنعت المذبحة وإسرائيل تتظاهر ضدها فما معنى ذلك ؟ .. طبعا أنت سيد العارفين في السياسة ، ولكن أنا على قد حالى ، أنا كنت في غيبوبة ولكني والحمد لله أفقت .

– أفقت على ماذا ؟ وكيف أفقت ؟

قال وهو يهز يده في وجهي بعصبية – أفقت من الجهل ، أفقت من الضلال ! والفضل لسمو الأمير . أفهمني أشياء كثيرة كانت غائبة عنى . هذه الدنيا يا

أستاذ غابة مليئة بالوحوش ولن ينقذنا إلا أن نصبح أقوياء . ولن نصبح أقوياء إلا إذا استخدمنا عقولنا ورجعنا إلى ديننا وإلى أصلنا ..

– ولكن إن كان الأمير يا يوسف هو الذى قال لك هذا الكلام ، فكيف يعمل سموه مع دافيديان ؟ ..

ثم تذكرت شيئا فقلت : وماذا عن النبيذ الذى قدمه إليك يوم قابلناه ؟

ابتسم يوسف فى إشفاق وهو يهز رأسه قائلا :

– ألم أقل لسعادتك إن السياسة بحر غويط ؟ .. فى بعض الأحيان يا أستاذ يجب أن تشتغل مع عدوك وأن تدخل فى عبّه لكى تعرف سره ! الأمير يشتغل مع دافيديان ومع الجن الأزرق لكى نصل إلى غرضنا بإذن الله . ومعك حق ، سموه كان يقدم لى النبيذ عندما كنت فى الضلال ، بل هو يقدم لأعدائنا الويسكى عندما يزورونه . لكنه بعون الله لا يذوق قطرة خمر . إنما للضرورة أحكام .

ثم سكت لحظة قبل أن يقول بتأثر :

– أخذنى سموه على كفوف الراحة حتى أوصلنى إلى التوبة والحمد لله . ثم أفهمنى كيف نخدم قضيتنا ...

كانت إيلين قد دخلت المقهى فى ذلك الوقت وراحت تجول بعيدا عنا ترتب الموائد والمقاعد فقلت ليوسف بلهجة عابرة :

– وذلك الحديث الذى ذكرته لى عن إيلين فى المرة الماضية .. هل قررت شيئا؟ رجع يوسف فى مقعده وتثاءب ثم قال باستهانة :

– لا . لم يكن لحديثى هذا معنى . أيامها كنت فى الضلال . يجب أن نبقى معا – من المهم أن أحصل علي جنسية البلد لكى أخدم القضية هنا براحتى (.. ثم رفع إصبعه أمام وجهى مرة أخرى وهو يقول) وإيلين أيضا من أهل الكتاب ...

– هل الأمير حامد هو الذى قال لك هذا ؟

لم يرد يوسف فقمت وأنا أقول :

– إذن اسأل الأمير ، وإن قال لك إن المظاهرة لا تضر قضيتنا فاتصل بى ..

نهض أيضا وهو يقول :

– لا تؤاخذنى يا أستاذ . لا أستطيع أن أتصرف من عقلى فى هذه المسائل كما قلت لك . أنا إنسان على قد حالى وبحر السياسة ...

– غويط . فهمت يا يوسف .

صافحته ، وهممت بأن أنصرف ولكن بعد أن مشيت خطوتين رجعت وسألته :

– اسمع يا يوسف . هل حكيت للأمير عن الحديث الذى دار بيننا عن دافيديان ؟

قال بنبرة التحدى الأولى وإن ظل اختلاج جفنيه :

– أنا لا أخفى شيئا عن سمو الأمير .

أردت أن أقول له شيئا ولكنى عندما رأيت وجهه ونظرته الزائغة عدلت عن ذلك وطاف بذهنى خاطر مرعب وأنا أراه أمامى : هل سيصبح خالد هكذا ؟

وعند باب المقهى فاجأتنى إيلين التى قالت لى بما يشبه الهمس ولكن فى نوع من الضراعة :

– أريد منك خدمة أخيرة يا سيدى .

– إن كنت أستطيع .

– أريد فقط أن تقول ليوسف إننى لا أمانع فى الطلاق سأتنازل عن أى حقوق.

– ولكن أنا ليس لى أى تأثير عليه يا إيلين لأطلب منه ذلك ..

غير أنها لم تسمع ، أكملت بنبرتها المتوسلة :

– يمكن أيضا أن أعطيه تعويضا صغيرا لكى يدبر معيشته بعد الطلاق . أريد أن ننفصل دون مشاكل (ثم همست بصوت مرتعش) أنا خائفة . أنا الآن أخاف منه يا سيدى ..

كانت شفتاها ترتجفان وهى تقول ذلك وتختلس النظر نحو يوسف الذى ظل واقفا يتمطى وهو يضع يديه فى جنبيه . فقلت لها :

– لا أريد أن أكذب عليك يا إيلين . لن يستمع يوسف الآن لأى شىء أقوله له. حاولى بطريقتك .

★★★

ذهبت بعد هذه المقابلة إلى الجامعة . وكنت أعرف هناك أستاذا مصريا قدمنى لبعض الطلبة العرب ، ووجدت عندهم الحماس الذى افتقدته عند يوسف ووعدونى بالاتصال بأصدقائهم من العرب ومن أبناء البلد للاشتراك فى المظاهرة.

اتصلت أيضا ببعض السفارات العربية فاعتذرت جميعها بأنها لا تستطيع أن تشترك فى مظاهرات لأن ذلك يتعارض مع التقاليد الدبلوماسية وحين شرحت أنى لا أريد منهم المشاركة ، بل المساعدة بإعطائى أسماء مواطنيهم أو عناوين جمعياتهم قالوا إن ذلك أيضا ليس من اختصاصهم .

وعاملتنى بعض السفارات بشك شديد ، على أساس أننى مدسوس من خصومهم العرب الآخرين لتوريطهم فى أنشطة مشبوهة بل قال لى مستشار صحفى بشىء من التهكم : ولكن لماذا تهتم مصر بهذه المظاهرة؟ .. ألم توقع على كامب ديفيد؟

قلت له : نعم ، ولكن ماذا فعل من لم يوقعوا على كامب ديفيد ؟

فخرجت من مكتبه شبه مطرود .

غير أنى لم أدخل في جدل معه ولا مع غيره . كنت أحاول بالفعل كل الطرق . وذات مرة سألت بريجيت إن كانت تعرف فى المدينة أعضاء من الجمعية التى يرأسها دكتور مولر، فسألتنى بدهشة : أية جمعية ؟.. ذكّرتها بجمعية الأطباء الدولية لحقوق الإنسان فقالت ولكن هذه الجمعية هى الدكتور مولر بالذات ! قد يكون فيها بعض أصدقائه من الأطباء فى النمسا ولكن هذا هو كل شىء . قلت ليكن . هل يمكن أن يساعدنا مولر بأى شكل ؟ هل يعرف منظمات للأطباء فى

المدينة ؟ .. هل يمكن أن يقدم شيئا لهذه المظاهرة ؟ قال لى ذات مرة إن هذه المدينة تهمه لأنها ملتقى دولى.

هزت بريجيت رأسها بالنفى بشكل قاطع قالت : مولر لا يشترك فى نشاط إلا إذا كان هو النجم .



كان صباح الأحد ، صباح المظاهرة ، مشمسا ودافئا .

وكان المفروض أن تبدأ فى العاشرة صباحا فذهبت على قدمى قبل الموعد بساعة تقريبا . قررت الشرطة منع المرور فى الشوارع المؤدية إلى الميدان الكبير الذى كان نقطة التجمع ، وفي الشوارع الأخرى التى ستخترقها المظاهرة. وحين وصلت إلى الميدان وجدته محتشدا بالفعل بالمئات ، واستمر آخرون يفدون من الشوارع الجانبية . كان معظم الموجودين من الشباب وقد أحاطوا المنصة المقامة حول تمثال الفارس بالأعلام الفلسطينية وباللافتات المكتوب عليها «كفى مذابح فى لبنان» و «بيجين وشارون قاتلان» و «كلنا مسئولون عن صبرا وشاتيلا» و «حزب العمال يدين قتل الفلسطينيين» .. إلخ .. إلخ ورأيت كاميرات تحيط بالمنصة ، ومصورين يلتقطون صورا، وجنود الشرطة فى كل مكان وفى أيديهم أجهزة الاتصال الصغيرة .

قابلت فى الميدان كل من أعرفهم . كان الطلبة العرب يوزعون منشورات تضم صورا للمجازر طبعوها على نفقتهم ، ورأيت برنار قريبا من المنصة مع صحفيين آخرين، وجاءت بريجيت ومعها صديقة لها ، ولمحت يوسف الذى تقدم منى قائلا بانفعال :

– لم أر مظاهرة بمثل هذا الحجم فى المدينة . جئت معى ببعض الأصدقاء .

– شكرا يا يوسف . استأذنت الأمير ؟

تفادى الإجابة وأشار إلى ركن من الميدان قائلا : هل ترى من هناك ؟

وكان يشير إلى رصيف بعيد عن جسم المظاهرة حيث يقف بعض الأشخاص

الذين يلبسون الطاقية الإسرائيلية وقد رفعوا لافتة حوّروا فيها عبارة بيجين لتصبح «عرب يقتلون عربا ويتهمون إسرائيل» كانوا أقل من عشرين شخصا وكانت الشرطة المحيطة بهم تفصل بينهم وبين بقية المظاهرة .

قلت ليوسف : لا شأن لنا بهم . هذه مظاهرتهم وهذه مظاهرتنا .

قال يوسف بحماس : ولكن يجب أن نعطيهم درسا !

– الدرس جاهز بالفعل يا يوسف انظر إلى عددهم واترك الناس تحكم . لا داعى للعصبية ولا للانفعال . ولكنك لم ترد على سؤالى . هل استأذنت الأمير ؟

قال بصوت خافت وهو يشيح بوجهه عنى : نعم ، ولكن سموه لا يحب المظاهرات . يعتقد أنها تضيّع الوقت وتعطل العمل للقضية .

ثم التفت نحوى بوجه بائس : قلت مع ذلك إنى لن أخسر شيئا لو أتيت . لن يعرف الأمير..

– الحقيقة هى أنك تعشق المظاهرات يا يوسف !

انصرف عنى بخطوات مسرعة . وفي تلك اللحظة اقترب منى برنار وسألنى عما قاله يوسف وعندما نقلت له ما دار قال :

– أنا أفهم الأمير . لعلمك كانت هناك جهات كثيرة تحاول منع المظاهرة ، تدخلوا عند السلطات وقالوا إنها يمكن أن تخرج عن السيطرة ويمكن أن تخل بالأمن .

– ولكن لماذا أرادوا منعها ؟

– ولماذا منعوها في بلاد كثيرة منها بلادكم العربية ؟ هم يريدون أن تموت الحكاية بالصمت كما ماتت جرائم أخرى . يريدون أن تموت الذاكرة ويموت الغضب ليستمر اللعب فى الخفاء . أفهم الأمير ، ولكنى لا أفهم يوسف . مسكين هذا الشاب .

ثم نظر إلى ساعته قائلا : ربما لا أبقى فى المظاهرة طويلا . ستبلغنى بما يحدث إن جرى هنا شىء مهم .

– بالطبع ولكن لماذا لا تريد أن تنتظر حتى النهاية ؟

قال وهو ينظر فى ساعته مرة أخرى : لا أريد أن أترك جان – باتيست وحده فى البيت . معه الآن جليسة لكنها ستنصرف فى الظهر.

– ما زال الظهر بعيدا ، فلم أنت قلق إلى هذا الحد ؟

تلفت برنار حوله وقال هامسا : هناك أشياء غريبة تحدث منذ نشرت تلك الكلمة التى قلت إنها أعجبتك ..

– نعم أقرأ الرسائل الغاضبة التى يكتبونها فى الرد عليك فى الصحيفة .

قال بلا اكتراث : دعك من هذه الرسائل . دعك أيضا من المكالمات التليفونية والرسائل البذيئة المجهولة . كل ذلك لا يعنينى . ما يعنينى هو جان باتيست .

قلت فى دهشة : جان باتيست ؟ ما علاقته بكل ذلك ؟

– هذا ما أود أن أعرفه !.. ولكننى تلقيت تحذيرا من المدرسة بأنهم شاهدوا أشخاصا غرباء يتحدثون معه عند باب المدرسة قبل أن أصل لاصطحابه . أنت تعلم أن المدرسين يراقبون الأطفال من بعيد ..

ثم عاد ينظر إلى ساعته بتلك الحركة الآلية.

قلت لأطمئنه : لا تبالغ يا برنار . لسنا فى غابة .

– حقا، وهؤلاء الأطفال الذين يختفون وينشرون صورهم فى الصحف أو يعلقونها فى مكاتب البريد كيف يختفون ؟

– أنت تعرف أفضل منى أن تلك فى الغالب جرائم انحرافات جنسية وليست جرائم سياسية .

– من يدرينى ؟

ثم أضاف بلهجته الساخرة : هل رأيت لماذا أحتاج إلى عنوان طبيبك ؟ واحذر أنت أيضا يا صديقى .

ولكن فى تلك اللحظة بدأ صوت الميكروفون، وكان رئيس جمعية الصداقة الفلسطينية يقدم المتحدثين فى المظاهرة . وشرح أننا بعد أن نستمع إلى

الكلمات سنتوجه إلى مجلس المدينة وإلى سفارة أمريكا لكى نقدم البيانات والمطالب التى سنتفق عليها فى المظاهرة ثم قدَّم ممثل منظمة التحرير .

تقدم ممثل المنظمة من المنصْة . كان نحيلا يلبس نظارة طبية سميكة . وكنت أعرف عنه أنه حاصل على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية ، وأن له آراء مستقلة لا ترضى عنها المنظمة .

قال بصوته الهادىء : تاريخ المذابح ضد شعبنا قديم ومتكرر . سأحدثكم عن مذبحة واحدة فقط وقعت فى فلسطين فى سنة ١٩٤٨ . أيامها كان العرب يحاربون لكى يبقوا فى أرضهم وكان الإسرائيليون يقاتلون لطردهم من هذه الأرض . لكن سكان هذه القرية لم يشتركوا فى القتال . أعلنوا للعرب ولليهود معا أنهم لا يريدون أن يشاركوا فى الحرب ، فكافأت عصابات الإرجون الإسرائيلية سكانها المسالمين ..

هكذا بدأ ممثل المنظمة يحكى تفاصيل مذبحة دير ياسين . راح يحكى كيف أباد الإسرائيليون ثلثى سكان القرية ذبحا وطعنا فلم يبق حيًا إلا من لاذ بالفرار. حكى كيف قتلوا أطفال القرية وشيوخها وبقروا بطون نسائها الحوامل وتساءل ما الذى جرى فى صبرا غير ذلك ؟.. ومن كان رئيس عصابة الإرجون التى ارتكبت المذبحة ؟ .. أليس هو بعينه مناحيم بيجين رئيس وزراء إسرائيل هذه الأيام ؟.. أيامها لم يكن هناك تليفزيون ينقل الصور ولم تكن هناك كتائب تكلفها إسرائيل بالعمل . أما الآن فأنتم رأيتم المجزرة وعرفتم أن من ارتكبوها كانوا يطبقون الدروس التى نفذتها إسرائيل من قبل فى دير ياسين وفى قبية وفى عين الحلوة ، وأن الهدف كان واحدا فى كل مرة : إبادة الفلسطينيين ونفيهم من أرضهم ثم من كل أرض يلجأون إليها . فماذا سيفعل العالم لوقف إبادة شعبنا؟.. إن كنتم قد نسيتم كل المذابح السابقة أو لم تسمعوا بها فأنتم فى هذه المرة قد رأيتم بأعينكم ولا عذر لكم ..

وبعد أن تكلم ممثل المنظمة قدم أنطوان نائبا اشتراكيا وأستاذا جامعيا من أهل البلد . وكنت أعرفه جيدا هو أيضا . ظل على مدى سنوات ينشر كتبا ومقالات عن استغلال الغرب وشركاته الكبيرة لبلاد العالم الثالث . كان يقول دائما

إن البلاد الفقيرة تدفع ثمن رفاهية البلاد الغنية ويثبت ذلك بالأرقام والإحصاءات . وعقب كل كتاب له كانت الشركات ترفع عليه قضايا ، واعتدت إن أجد فى صندوق البريد منشورات غير موقعة تطالبنى بإلحاح بألا أعيد انتخاب هذا «الخائن» للبرلمان !

بدأ حديثه فى المظاهرة أيضا بالأرقام . قال إن حوالى عشرين ألف قتيل وخمسين ألف جريح سقطوا حتى الآن ردا على ضرب سفير إسرائيل بالنار فى لندن ولإعادة السلام للجليل . قال إن هذا يذكره بما كان يشاهده فى الأفلام الأمريكية وهو صغير ، عندما كانت حفنة من الأمريكيين تقتل على الشاشة جحافل الهنود الحمر فيسقط هؤلاء بالعشرات والمئات وهم يطلقون صرخات وحشية وكأنهم ليسوا بشرا، وكأنهم يرتكبون جريمة لا تغتفر لأنهم يدافعون عن بقائهم أحياء فى أرضهم ، ولكن حين يصاب «البطل» الأميركى الفريد بجرح قاتل تتمهل الصورة وترتفع الموسيقى الحزينة وكأنما هى نهاية العالم قد حلّت . قال إنه يشعر بالخجل من نفسه حتى الآن لأنه كان يفرح فى الأفلام لقتل الهنود . لم يعلم إلا عندما كبر وقرأ كيف أباد البيض فى أمريكا شعبا كانت له حضارته ، وكان وقت اكتشاف أمريكا يمثل خمس سكان العالم .

وأنهى النائب كلمته بشيء من الغضب وهو يسأل : أليس ما رأيناه فى الأفلام هو ما يحدث الآن فى الواقع ؟ .. ألم تعط أمريكا العرب إلى إسرائيل لكى يلعبوا بهم هنودا حمرا ؟ .. إن قتلت منهم إسرائيل الآلاف فهم مجرد أرقام ، وإن سقط إسرائيلى واحد فهى الكارثة والإرهاب ؟ ..

وسكت لحظة قبل أن يقول : إنها إهانة للعقل وإهانة للسلام أن تسمى إسرائيل هذه المجزرة المتصلة وهذا الطوفان من الدم باسم «السلام للجليل» .

وفى تلك اللحظة ارتفع صوت يهتف : الموت لإسرائيل ! .. تسقط أمريكا !

كنت أعرف الصوت وإن لم أر الوجه ، كان هو يوسف . وردد وراءه الهتاف اثنان أو ثلاثة . ولكن ممثل منظمة التحرير اختطف الميكرفون من المتحدث وقال: لن تكون هناك هتافات . أرجوكم نريد أن نحافظ على النظام فى المظاهرة وأرجو أن تساعدونا على ذلك .

وتتابعت بعد ذلك خطب من ممثلى الأحزاب والنقابات والمنظمات وتشنج يوسف مرة أخرى بعد كلمة لأحد المتحدثين فأسكته المحيطون به فى غضب . وأردت أن أتوجه إلى حيث يقف لأطلب منه أن يهدأ ولكن فى تلك اللحظة كان شخص يتحدث فى الميكرفون شد إليه كل الانتباه . كان رجلا طويلا عجوزا، أشيب، ناحل الشعر ولكن صوته خرج قويا لا يتناسب مع مظهره وسنه .

بدأ كلمته بعبارة : اسمى رالف وأنا صحفى وأنا يهودى وأمريكى ..

كنت أول من دخل صبرا بعد المجزرة . دخلتها بعد آخر موجة من المذابح. التقطت صورا وسجلت ما سمعته ممن ظلوا على قيد الحياة ولن أقول لكم كل ما رأيته ولا كل ما سمعته . أنا متأكد أنكم تعرفون ما فيه الكفاية .. سأقول لكم أشياء قليلة لا غير .

أنتم سمعتم أن الكتائبيين وقوات سعد حداد وقوات مسيحية أخرى هى التى . ارتكبت هذه الجرائم وأنا أقول لكم إن إسرائيل هى التى دبرت ورتبت هذه المجزرة وشاركت فيها من الألف إلى الياء وسأقدم لكم الدليل .

وبدأ رالف بعد ذلك يقدم الدليل . قال إن إسرائيل احتلت بيروت الغربية يوم الأربعاء فلم تواجه أى مقاومة تقريبا . لم يكن قد بقى أحد ليدافع عن المخيمات بعد نفى الفدائيين ، ولكنها حاصرت صبرا وشاتيلا من جميع الجوانب بالدبابات والمدفعية . ومنذ صباح الخميس أول أيام المجزرة – بدأت تقصف بيوت المخيمين بالمدافع فسقط الكثير من القتلى والجرحى . خرج من مخيم شاتيلا وفد من المسنين يرفع الأعلام البيضاء . أرادوا أن يقولوا إن المخيمات لم يعد فيها من يحارب وهى تستسلم ويمكن للإسرائيليين أن يدخلوها دون قتال إن أرادوا . لكنهم قتلوهم على الفور. ذكر رالف أسماءهم وأكد أنهم كانوا جميعا فوق الستين. فى ذلك الوقت لم يكن بوسع أحد أن يدخل المخيمين أو أن يخرج منهما إلا من خلال الكماشة الإسرائيلية وفى مساء الخميس أدخلوا عصابات القتلة المأجورين . قال رالف إن البعض قد يسميهم كتائبيين أو غير ذلك ، ولكنه لا يسميهم غير قتلة محترفين قبضوا الأجر ونفذوا التكليف . كانت أسلحتهم إسرائيلية ، وأزياؤهم إسرائيلية ، وحتى أربطة أحذيتهم إسرائيلية . وهذه

العصابات التى دخلت لم تكن أفرادا بل فرقة كاملة : ألف وخمسمائة مجرم . استمروا يذبحون ويغتصبون ويعذبون ويسحلون ثلاثة أيام متواصلة ، يخرجون ليحصلوا على الزاد والذخيرة من الإسرائيليين ثم يرجعون لاستئناف المجزرة. وفى تلك الأثناء كان الاسرائيليون يراقبون ما يجرى من فوق المبانى العالية، بالنظارات المكبرة، يطمئنون الى أن الأجراء ينفذون التكليف الذى قبضوا ثمنه. وفى الليل ، عندما قطعوا الكهرباء عن كل بيروت ، كانوا يطلقون صواريخ لإنارة المخيمات لعملائهم . بعد ذلك أعطاهم الإسرائيليون جرافات لهدم البيوت على من فيها من الأموات والأحياء ولحفر القبور الجماعية .

سكت رالف لحظة قبل أن يقول محاولا أن يسيطر على انفعاله :

ـ كنت قد شاهدت هذه القبور الجماعية من قبل فى مخيم عين الحلوة بعد سقوطه . هدمت قوات إسرائيل بالجرافات كل بيوت ذلك المخيم ودفنت القتلى فى حفر عميقة . وسمعت ممن بقى حيا فى عين الحلوة أن هذه الجرافات كانت تلتقط أيضا فوق حمالاتها الحديدية المسنونة مع الجثث والأنقاض بعض الجرحى الذين كانوا يصرخون أنهم أحياء ولكنهم دفنوهم مع القتلى . ذلك أيضا ما حدث فى صبرا وشاتيلا، كل الفرق أنهم تركوا فيهما بعض تلك الجثث فى الطريق .

ارتفع صوته قليلا وهو يقول : ولكن هل سألتم أنفسكم لماذا ؟ .. أنتم تعرفون أن كلمة الجثث هينة جدا بجانب ما رأيتموه . تعرفون أن الذين ارتكبوا المجزرة وأمروا بها أرادوا أن يجعلوا الإنسان شيئا مقززا . كانت هناك فرق متخصصة فى ذلك . تشوه الوجوه بالسكاكين وبالبلط وتسلخ جلود الضحايا وتبتر ذكور الرجال وأثداء النساء وتقطع الأصابع والأيدى وتترك عامدة تلك الأعضاء المبتورة إلى جانب الجثث ، فلماذا ؟ .. حتى النازيون كانوا يحاولون إخفاء جرائمهم . فهل سألتم أنفسكم لماذا أرادت إسرائيل أن تعلن هذه الجريمة ؟

ارتفع صوت غاضب من الرصيف الآخر يقول : اسكت ! أسكت يا خائن !

ولكن رالف أكمل دون أى اضطراب : سأقول لكم . لقد تعمدوا ترك هذه الجثث . لقد أرادوا أن يثيروا الفزع . أرادت إسرائيل أن تبلغ رسالة للعرب وقد

أبلغتها : أرادت أن تقول نحن نقدر دائما على مثل هذا . ما حدث فى صبرا وشاتيلا يمكن أن يتكرر فى غيرها . استسلموا ولا تفكروا فى المقاومة .

ثم سكت مرة أخرى سكتة أطول من سابقتها والتفت نحو الرصيف الآخر قبل أن يكمل : سأقول شيئا لهذا الذى وصفنى بأننى خائن لأنى يهودى ولأنى أقول الحقيقة عن المذبحة التى دبرتها إسرائيل . سأقول له إن أبى أنا أيضا قد قتله هتلر فى أوشفيتز . ولكنى عندما رأيت ما حدث فى صبرا وشاتيلا عرفت أنه مات مرتين ، لأن من أبيدوا فى صبرا وشاتيلا هم أيضا ستة ملايين .

ارتفع الصوت من الركن نفسه ساخرا هذه المرة : خائن وكذاب !

واستمر رالف : سأنقل لكم أيضا ما شاهدته وما قاله لى رجل من الصليب الأحمر فى صبرا وشاتيلا . قال لى لقد صنعنا حفرة عمقها ثلاثون قدما وعرضها وطولها مائة وخمسون قدماً . رأيت هذه الحفرة بنفسى ولم تكن عميقة بما فيه الكفاية لأنى رأيت جثثا تبرز من الجير الذى ردموها به . قال الرجل إنهم دفنوا ثلاثة آلاف جثة ، ولا تحسب ضمن هذا العدد من دفنتهم عصابات القتلة بالجرافات ومن قتلهم قصف إسرائيل للمخيمات ولا من اقتادوهم ليقتلوهم خارج المخيمات . كم ألفا تحسب هؤلاء ؟ .. وكم مليونا يصبحون لو حسبتهم بالنسبة لسكان هذه المخيمات ؟

ثم التفت مرة أخرى إلى مصدر الصوت وقال أنت لا تخون إن قلت الحقيقة ، بل تخون إن لم تقلها .

وكان كل الرد على رالف زمجرة غاضبة من ذلك الركن . وكانت هى الصوت الوحيد الذى يقطع الصمت المطبق فى الميدان .

تقدم أنطوان رئيس جمعية الصداقة ليقرأ المطالب التى ستقدمها المظاهرة . ولكن ممثل منظمة التحرير همس فى أذنه بشىء فقال أنطوان : ستكون هناك كلمة أخيرة :

أمسك ممثل المنظمة بالميكروفون وقال :

ــ سأضيف شيئا أو شيئين إلى ما قاله رالف . نعم أرادت إسرائيل أن تحقق

من الجريمة الهدف الذى نكره ، ولكنها أرادت شيئا آخر كشفه بيجين حين قال أغيار يقتلون أغيارا . أراد بيجين أن يقول هذا هو ما يفعله العرب ببعضهم البعض : يقتلون بمثل هذه الوحشية وبمثل هذا الإهدار للآدمية . ولهذا فإن ما تفعله بهم إسرائيل مبرر تماما . لا يكفى إبعاد هؤلاء الناس عن أرضهم وإنما يجب إبادتهم. ولكننا نعرف الآن أن تلك الجريمة لم يدبرها وينفذها الأغيار، بل الاسرائيليون أنفسهم. ألم يلفت نظركم حقا أن إسرائيل التى تدافع عن نفسها بأنها هى التى تدخلت لوقف المجازر لم تقبض على واحد، مجرد واحد، من هؤلاء القتلة؟.. وهم كما سمعتم من رالف لم يكونوا مجرد آحاد، بل كانوا ألفا وخمسمائة مجرم على الأقل، فأين هم؟.. أنتم وأنا نعرف الجواب: هم تحت حماية من سلحهم وأستأجرهم واستخدمهم. ولكننا يجب ألا نستسلم لإفلاتهم. فليكن أول مطالبنا الآن هو التحقيق فى الجريمة والقبض على القتلة. لو تم ذلك فسنعرف كل الحقيقة.

وافق المتظاهرون على الاقتراح، وبدأت المظاهرة تتحرك وكان انطوان فى المقدمة يهتف فى مكبر الصوت بالشعار الذى تقرر، ونحن نكرره وراءه بوقفة مع كلمة «بيجين..شارون.. قاتلان».

وظل رجال الشرطة يحيطون بالمظاهرة ويتابعون جوانبها بسياراتهم، وهى تخترق ببطء شوارع المدينة الخالية من المرور، وكان بعض المارة يتوقفون على الأرصفة يتفرجون وبعضهم يسأل عن السبب فيها وسمعت واحدة تقول لصديقتها باستخفاف ونحن نمر بجوارها «هم عرب» فقالت صديقتها «هذا ما ظننت أنا أيضا، ولكن يوجد آخرون أيضا، تصورى!»

وكنا نمر إلى جوار أحد المقاهى الذى صف مقاعده على الرصيف فى ذلك اليوم المشمس، وراح الزبائن أيضا يتطلعون إلى المظاهرة في صمت ، ولكننى فجأة رأيت شخصا يندفع من صفوف المظاهرة وهو يصرخ. رأيته يمسك بتلابيب رجل عربى يلبس جلبابا أبيض وأمامه زجاجة بيرة ثم يلقى بكوب البيرة على جلبابه.

كان هو يوسف، وجريت لأوقفه.

هب الرجل مذعورا ويوسف ما زال يقبض عليه ويسبه، يسأله كيف يشرب البيرة ودماء الشهداء لم تجف .

ظل الرجل يتطلع إلى اليمين وإلى اليسار ممتقع الوجه وهو ينادى شخصا ما: «رأفت .. يا رأفت» .. بينما هو يربت على كتف يوسف قائلا :

– عظيم .. عظيم يا أخ ! .. انتهينا يا بطل .. مع السلامة .. مع السلامة .. يا بطل العرب .. يا رأفت .. يا زفت يا رأفت !

لكنه لم ينجح فى أن يبعد قبضة يوسف التى تجذب جلبابه وكنت قد وصلت إليهما ، غير أن شرطيين كانا قد سبقانى وقبضا على ذراعى يوسف وراء ظهره..

ووصل (رأفت) الذى يناديه الرجل أيضا لحظتها من داخل المقهى وهو يصرخ.

– ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث ؟ .. كنت فى دورة المياه !

كان شابا مصرى الملامح مفتول العضلات.

قال له – إدفع الحساب بسرعة وهيا بنا .

لكن أحد الشرطيين كان يقول للرجل فى بطء : نحن شاهدنا ما حدث . هذا الشخص اعتدى عليك . ومن حقك أن تسجل شكوى ضده . نحن شهود .

التفت الرجل إلى رأفت وسأله : ماذا يقول العسكرى ؟

وحين ترجم له رأفت رفع يديه إلى رأسه كأنه يحيى الشرطى وقال لرأفت:

– قل له انى متنازل عن الشكوى. أنا مسامح الرجل. لا أريد شكوى ولا يحزنون.هيا بنا .

وظل يجذب رأفت من ذراعه بينما كان يترجم للشرطيين ما قاله، ولكن الشرطى قال متجهما:

ـ حتى لو تنازل عن الشكوى فيجب أن يحضر معنا كشاهد. هذا الشخص ارتكب جريمة اعتداء ويجب أن يحاسب عليها .

غير أن الرجل كان مستفزا هذه المرة بعد أن استمع إلى الترجمة. أخرج من جيبه جواز سفر أحمر وقال فى غضب:

ـ قل للعسكرى إن الشرطة لا علاقة لها بى. أنا عندى حصانة.لا أريد شكوى ولا أريد شهادة وهيا بنا من هذا المكان.

راجع الشرطى جواز السفر بدقة ثم رده بعد أن رفع يده بالتحية. وقال ليوسف زاجرا:

ـ أشكر سمو الأميرلأنه تنازل عن حقه، ولا تعد لمثل هذه الأعمال.

ولكن يوسف كان يقف ذاهلا . لم ينبس بحرف .

وبعد أن انصرف الشرطيان قال رأفت للأمير:

– تحب سموك أن أؤدبه ؟

فدفعه الأمير دفعة قوية فى ظهره وهو يقول :

– إمش انجر ! .. ساعة الجد تختفى والآن تريد أن تعمل لى فيها محمد كلاى!.. انجر من هنا !

وانصرف بسرعة وهو ينفض جلبابه .

وتفرق الجمهور الذي كان يحيط للفرجة . كان منه كثير من المشتركين في المظاهرة وكان هتاف المتظاهرين يبتعد : «بيجين .. شارون .. قاتلان» .

حين لمحنى يوسف نظر فى وجهى نظرة زائغة فقلت له بهدوء :

– ليس هذا يا يوسف هو الأمير الذى يجب أن تصفى حسابك معه.

أفاق عندما قلت له ذلك . ظل يتأملنى فترة ثم جذبنى نحوه فجأة وهمس فى أذنى :

– إسمع . أترك هذه المدينة . الأمير لا يطيقك . الأمير يستطيع أن يفعل أى شىء .

ـ ماذا قلت ؟

ـ لم أقل شيئا .

تركنى وانصرف بسرعة ، وجريت أنا أيضا لألحق بالمظاهرة .

★★★

بعد المظاهرة كنا نسير صامتين ، جنبا إلى جنب، بريجيت وأنا .

حل محل الانفعالات الكثيرة المضطربة إحساس الهمود والفراغ الذى يصحب كل نهاية .

وقادتنا أقدامنا إلى الحديقة الكبيرة فى الميدان الرئيسى التى كانت مزدحمة بالرواد فى يوم العطلة المشمس . فى المدخل كان لاعبو الشطرنج الواقفون حول رقعة كبيرة مرسومة على الأرض يتأملون الأفراس والطوابى وأيديهم حول ذقونهم قبل أن يتقدم لاعب لينقل القطعة التى استقر عليها رأيه بكلتا يديه . وخطر لى للحظة أنه لو كان خالد هنا للعبنا معا فى هذه الحديقة وكان سيسعده هذا الجمهور . ولكنى تذكرت . لا ، لم يكن هذا سيسعده . ترى هل وصله خطابى؟ سأعرف ذلك فى المكالمة المقبلة . هل سيفيد بشىء ؟.. هل سيصبح مثل يوسف؟ .. هل مازال هناك شىء يمكن أن أفعله ؟

جلسنا على أحد مقاعد الحديقة وأنا أقول:

– لم أتوقع أن تأتى للمظاهرة . أعرف رأيك فى هذه الأشياء . لكنك ظللت تهتفين من أول المظاهرة وصمدت حتى نهايتها . كثيرون انصرفوا فى منتصف الطريق .

قالت شاردة بصوت خافت متعب بعد كل تلك الهتافات التى أطلقتها :

– نعم ، لا سيما بعد تلك المشاجرة السخيفة عند المقهى . أظن أن ذلك الشخص تعمد أن يفسد المظاهرة . منذ البدء كان يطلق هتافات ويحدث ضجة . هل تعرفه؟

لم أرد عليها . كانت تلك الفكرة قد خطرت لى منذ البدء ، أن يكون يوسف ومن معه موفدين لإفساد المظاهرة، ولكنى أردت أن استبعدها . قلت لنفسى هو ليس شريرا .

مالت بريجيت برأسها على كتفى فمددت يدى وأحطتها بها فقالت بصوت خافت:

- شكرا .

نظرت إلى وجهها ، وكانت تبتسم وإن ظل الشرود فى عينيها وأكملت :

- أعرف أنك تخجل حين نتصرف أمام الناس كحبيبين ولكنى اليوم أحتاج إليك ..

ثم تذكرت شيئا آخر فقالت : ولو أنى لم أغير رأيى . من يتعذب يتعذب وحده ومن يموت يموت وحده . لن تعيد مظاهرتنا الحياة لأى واحد مات فى بيروت . هل تعرف من قابلت اليوم ؟ بيدرو إيبانيز!

- وماذا جرى له ؟

قالت بلهجة متحيرة :

- هذا ما أود أن أعرفه . كان غريبا وتجاهلنى تقريبا حين تحدثت إليه . كنت أخاف أن يقتله العمل الشاق فى دنيا العمل السرى ولكن يبدو أن ما حدث له أسوأ من ذلك. لماذا لم يتركه مولر فى حاله؟.. فى كندا ، فى النمسا، فى بلده، فى أى مكان ..

- ماذا حدث له ؟

ولكن فى تلك اللحظة كانت طفلة فى حوالى الخامسة تلبس فستانا أحمر تتقدم من بريجيت وسألتها برزانة :

- كم الساعة ياسيدتى ؟

أشارت بريجيت إلى معصمها وهى تقول : ليس معى ساعة مع الأسف ..

ثم التفتت نحوى فقلت : الثانية والربع.

أرادت الفتاة أن تنصرف ولكن بريجيت قالت لها وهى تفتش فى حقيبتها : لماذا تسألين عن الساعة ؟

– وعدت ماما أن أرجع فى الثانية والنصف.

– إذن مازال هناك وقت . وبما أنك بنت عاقلة وتحترمين مواعيدك فسأعطيك هدية صغيرة . خذى. اشترى ما تشائين بهذا المبلغ قبل أن ترجعى إلى ماما .

قدمت إلى البنت عملة معدنية صغيرة ، فبدت فى وجهها السعادة وشبت على قدميها ، ثم قبلت بريجيت فى خدها بتلقائية قبل أن تجرى عائدة إلى مجموعة الأطفال الذين كانت تلعب معهم .

تابعتها بريجيت ببصرها ثم راحت تنقل بصرها بين الأشجار . وكانت أمامنا شجرتان عاليتان توهجت أوراقهما باللون الأحمر القانى وظلتا مميزتين وسط الأشجار الأخرى التى وشاها الخريف بالصفرة . أطلقت ضحكة خافتة وهى تصعد ببصرها مع الشجرة وقالت:

– ومع ذلك فسيوحشنى عشاق الارتفاعات!

تعودت منذ زمن طويل على انتقالاتها المفاجئة فلم أعد أسألها عن شىء . عرفت أنها ستحكى ما خطر لها من تلقاء نفسها.

قالت بشىء من الحيرة : لا أعرف لماذا هم دائما آسيويون. (ثم ترددت لحظة) لا . يوجد أيضا من جنسيات أخرى ولكنهم قلة.

ثم سكتت وعادت إلى الشرود . فقلت

– من هم هؤلاء يا بريجيت؟

هزت رأسها وكأنها تفيق وقالت : ماذا؟ .. عن أى شىء تسأل؟

– كنت تتحدثين عن عشاق الارتفاعات . من هم؟

عادت تضحك من جديد دون روح وهى تقول : آه ، هؤلاء؟.. ألم أقل لك إنهم كانوا يظهرون فى كل فوج سياحى؟ آتى بهم إلى هنا أحيانا ، وأحدثهم عن هاتين الشجرتين اللتين نقلوهما من أمريكا . أحكى لهم التاريخ وكيف أمكن بعد تجارب كثيرة أن تنجح زراعة الشجرتين فيفاجئوننى بالسؤال عن ارتفاعهما . يدونون ذلك بكل دقة فى مفكرات صغيرة يحملونها . يكتبون أيضا ارتفاع برج الكاتدرائية .

كل شيء عال يستوقفهم وكأنهم مكلفون بحساب الارتفاعات في العالم . هل تعرف السبب؟

كانت عيناها متسعتين بالدهشة وكأنها تسألني عن لغز عصيّ . فابتسمت وأنا أقول لها : لا . لا أعرف يا بريجيت . ولكن لماذا سيوحشونك؟ .. اليابانيون لا يتوقفون بعد الصيف مثل الآخرين . يأتون هنا على مدار السنة .

فكررت ورائي – نعم ، يأتون على مدار السنة .. ثم قامت فجأة وهي تقول : هيا بنا ننصرف . أنا جائعة .. هل عندك في البيت شيء نأكله ؟

– هناك أشياء في الثلاجة .

– هيا بنا إذن . اليوم سأعدُّ لك غداء خاصا .



قبل أن نصعد إلى الشقة فتحت صندوق البريد ، الذي تراكمت فيه رسائل عدة أيام .

لم يكن هناك غير الصحف ورسائل الإعلانات ، ولكني وجدت أيضا رسالة من القاهرة عليها طوابع حكومية داخل ظرف صغير مثل خطابات مصلحة الضرائب التي كنت أتلقاها في القاهرة .

أمازالت هذه المصلحة تتذكرني بعد كل تلك السنين في الغربة؟

عندما ذهبت بريجيت إلى المطبخ لترى ما يمكن أن تعده للغداء ، وضعت الصحف جانبا وفتحت الخطاب . قرأته وأنا واقف ، ثم أعدت قراءته . خيِّل إلي أنني لم أفهم .

كانت نصف صفحة من ورقة صفراء خشنة مملوءة بالأختام وبالتوقيعات تعلوها عبارة «رئيس مجلس الإدارة» وتحتها السيد فلان ثم «نظرا لما قرره مجلس الإدارة من ضرورة خفض النفقات تنفيذا لتوجيهات السيد ... فقد تقرر إلغاء وظيفة المراسل الصحفي في مدينة ... على أن يتم تنفيذ هذا القرار خلال شهر من تاريخه. توقيع، عن رئيس مجلس الإدارة» .

– غير صحيح !

وتلك الرسالة الرقيقة التى بعث بها رئيس التحرير منذ أيام؟ الرسالة التى لم تشر من قريب أو بعيد إلى قرارات التقشف؟

ظهرت بريجيت عند المدخل وسألتنى ماذا هناك؟

فقلت : غير صحيح !

ولكنى عندما نقلت لها الخبر ، ابتسمت ابتسامة حزينة وقالت :

– بل صحيح جداً !

– كيف ؟ أنا أقول لك هناك غلطة !.. هل تعرفين أنت أخبار القاهرة أفضل منى؟

هزت رأسها بالنفى وقالت : لا .. لا أعرف أخبار القاهرة، ولكن أعرف الأخبار هنا.

قلت فى ذهول : ماذا تعرفين عن الأخبار هنا؟.. وما علاقتها بهذه الرسالة؟ تقدمت منى بهدوء وقالت :

– منذ أيام قال لى المدير إنه لم يعد يستطيع استبقائى فى الشركة ، لأن الشرطة سألته عن تصريح العمل. نصحنى أيضا ألا أبحث عن عمل آخر فى المدينة لأنه سيكون هناك باستمرار من يسأل عن تصريح العمل . قال لى كل الحقيقة كآخر دليل على الصداقة . كآخر نصيحة .

– ولكن لماذا ؟

وضعت يدها على كتفى وأشارت باليد الأخرى إلى الخطاب المفتوح وقالت وهى تكاد تصرخ :

– حاول أن تفكر!

ثم صرخت بالفعل وهى تدفن وجهها فى كتفى.

– هذا عالم ماسياس وسمو الأمير! لا فائدة!



لم يكن صعبا أن أفهم ولكنى حاولت أن أقطع كل شك . فشلت مرات كثيرة فى الاتصال برئيس التحرير الذى كان أيضا رئيسا لمجلس الإدارة ، وأدركت أنه يتهرب من الحديث معى وعندما نجحت فى الاتصال به أخيراً ، كانت لهجته مليئة بالاعتذار وهو يكرر «ليس بيدى .. ليس بيدى أقسم لك». ولكنه رفض أن يقول لى بيد من . قال إنه يمكن أن يبذل مجهودا ليجدد لى شهرا آخر حتى استكمل علاجى .

ولم يكن يعنينى كثيرا أن أبقى فى المدينة شهرا آخر .

كانت بريجيت تدبر نفسها للرحيل . قررت أن تعود إلى النمسا لتبقى فترة مع أبيها قبل أن ترى ما يمكن أن تفعله .

انتهى كل شىء ولم يعد بيدك ، أنت، ما يمكن أن تفعله . لم يبطئ كثيرا ذلك اليوم.

خشيت نهايته فجاءت أسرع مما توقعت . ظللت تحارب هواجسك وأنت تتخيل تلك النهاية : ستهجرك بريجيت !.. ستجد شابا من سنها ، شخصا من بلدها، يحب الرقص كما تحب هى، ويحب مثلها تسلق الجبال والتزلج على الجليد وتلك الأشياء التى كانت تذكرها عرضا فى حديثها معك والتى لا تعرف أنت عنها شيئا. هل ستصحو ذات يوم فتجد منها رسالة وداع ، أو تجدها قد اختفت دون وداع؟ هل تأتى النهاية حين تسقط أنت مرة أخرى بعد أن تتمرد تلك الشرايين التالفة ، فلا تكون صحوة أخرى ولا شفاء آخر؟

هل تأتى النهاية دون صخب على الإطلاق؟ ينوى الحب وتقتله العادة والسأم؟ كل شىء تخيلته فى لحظات الرعب من أن تختفى بريجيت من حياتك . كل شىء غير أن ينهى العالم، كما قالت هى ذات مرة، ما بينك وبينها. غير أن ينقض ذلك السيف من المجهول فيبترنى منها.

كانت هناك صبارة جف فيها كل شىء غير أشواكها المشرعة التى تخز لحمها العجوز ، صبارة لا تموت ولا تحيا، مددت لها يدك فبعثت أوراقها الميتة

لتكون شجرة من أشجارك الوارفة التى تحبينها، تفرعت فيها الأغصان ونبتت الأزهار، وها هو ذلك السيف يبتر الأغصان كلها دفعة واحد، لكى يعرّى مرة أخرى الصبارة والأشواك .

لكى ترجع العيون المفتوحة فى الليل تحدق فى الظلمة .

ذلك ما يحدث – فصارع إذن تلك الخيل التى تداهمك ، صارعها وحيدا أو معك الصبر أو دون الصبر . أرنى ما يمكن أن تفعله .

ها هى بريجيت هناك – تحبك كما أحبتك فى البدء – تشعر برعشة يديها بين يديك مثلما شعرت بها فى أول يوم، تقرأ فى عينيها ذلك العشق الأول، ثابتا مثلما كان، وها أنت حتى الآن مازالت طفلا أبديا فى قلب الحب الطفل، حين تحتويها يسقط عنك فجأة ثقل السنين وثقل الهموم وتطفو خفيفا فى نشوة الحب التى لا تنتهى. فحاول إذن أن تقبض على ذلك الأثير الذى سبحت فيه لحظة البعث القصيرة تلك . حاول منعه من أنه يتبدد أو أن يتلاشى .

قل لها فلنعش فى مدينة أخرى . فلنحاول أن نعمل بعيدا عن هنا، فستقول لك سئمت الهرب، و(هم) فى كل مكان .

قل لها فلنتزوج فستقول لك أشباحنا كثيرة وستطاردنا أينما نكون . نحن أقصى مانستطيعه هو ما صنعناه بالفعل : أننا اختلسنا من الزمن لحظاتنا تلك .

قل ما شئت . فسترجع الصبارة، والرمال التى شربت النبع تتحول تحت أقدامك حجارة صلبة مدببة .

ضع فى الظلمة خططا وحلولا فسيبدّدها النهار .

إركع . إبك . توسل . أرنى ما تستطيع، فها هى الليلة الأخيرة تأتى .

ها أنتما فى عصر يوم – كعصر ذلك اليوم الذى دخلت فيه تلك الشقة أول مرة، ولكن الستائر مسدلة والغرفة معتمة .

الغرفة خالية لم يبق فيها شىء.

ترقدان معا على الأرض الخشنة . تحيطها بذراعك وتحيطك بذراعها ، صامتين هامدين بعد أن حملتكما الموجة لآخر مرة .

تهمس لك بعد فترة :

- يمكنك ألا تأتى غدا . أستطيع أن أذهب وحدى .

- أعرف . لكنى سآتى .

تهمسين : هل تعرف من جاء ليودعنى اليوم؟

- مدير الشركة؟

- لا . كان المدير لطيفا مع ذلك وكان كريما . اشترى الأشياء القليلة التى تستحق الشراء فى الشقة .

- إذن جاء ليودعك؟

- جاء فى الصباح .. دخل من الشرفة .. لم يكن قد بقى فى الشقة غير ما تراه . تلك المائدة الصغيرة والمقعدان ..

- من دخل من الشرفة يا بريجيت؟

- .. دخل ثم شقشق بتحية الصباح . ظل يحدق فى الغرفة، أعجبه صدى رفيف جناحيه فى الغرفة الفارغة فظل يدور ويدور وأنا أقف دون حركة . فى مكانى هنا جنب الشرفة لكى لا أزعجه ، وأخيراً حطَّ على المائدة وراح ينظر نحوى فى صمت وشقشق مرتين بصوت خافت . فهمت رسالته وقلت إنى أشكره، فظل يدور ببصره فى الغرفة لليمين ولليسار ، وأخيرا رفع ساقه النحيلة وهرش بها رأسه . فتش فى رأسه عن شىء آخر يقوله لى لكنه لم يجد . فدار مرة أخرى فى الغرفة ثم اندفع للخارج، لمسنى جناحه وهو يخرج . هل مات صديقك إبراهيم؟

نهضت بجذعى فجأة وأنا أهتف - لا ! لماذا تقولين ذلك؟

ظلت تثبت عينيها فى وجهى وقالت دون أن تتحرك - أنا أسألك هذا كل شىء. لست ساحرة ولا عرافة ، ولكنى مع ذلك رأيت موتا فى عينيه فى أول مرة قابلته فيها . كان يجذبنى وكان يخيفنى . احتجت مرة أن أشرب كثيرا، أن أفقد وعيى لكى أتخلص من مطاردته وأنجو من سحره ، ولكن كان هو الذى تخلص من سحرى . أنت تعرف ما كان بيننا، أليس كذلك ؟

– نعم ، أعرف، ولكن لمَ قلت هذا الآن؟ يعذبنى أنى لا أعرف شيئا عنه .

– قلت لك أنا لست عرافة وأنا أيضا لا أعرف شيئا عنه.

– وهل أحببته.

– أبدا . كان مملتئا بالدنيا.

ثم مدت ذراعها وجذبتنى لأرقد مرة أخرى إلى جوارها.

قالت : أنت الذى أحببت . أحببت صمتك وأحببت ثرثرتك وأحببت ما لم تقله بالصمت ولا بالثرثرة .

اقتربت منى. التصقت بى وقالت وهى تتحسس وجهى بأناملها: أحببت أن أشاهد نفسى أتغير معك، أحببت أن أراك تفقد السنين لتكون لى وأكسب السنين لأكون لك . كانت هناك واحدة لم تضع منها الفرحة وحدها، بل ضاع منها حتى الحزن والألم. واحدة شاهدت نفسها تتلاشى . وحين وجدتك استردت نفسها ثم أصبحت أكبر وأكبر ..

ثم قلت فى همسك باستسلام كامل وأنت تمسدين شعرى :

– والآن ها هى مرة أخرى تتلاشى .

غمغمت فى يأس : ولكن لابد أنه توجد طريقة.

فكررت ورائى : بالطبع لابد وأنه توجد طريقة .

ثم نزلت بأصابعها على فمى وقالت : ولكن لا تسألنى..

ثم نهضت ومالت بجذعها فوقى . انحنت بوجهها فوق وجهى . صنع شعرها خيمة أحاطتنى وصنع عطرها هالة أحاطتنى وبسطت ذراعيها جناحين حولى، وحلقنا معا، مرة أخرى . مرة أخيرة.



عندما ذهبت فى ظهر اليوم التالى لأصحبها بالسيارة إلى المطار كانت تنتظرنى أمام الباب بمعطف المطر وقبعة سوداء فوق رأسها وقد تركت شعرها

الطويل ينسدل على ظهرها . ورأيت وأنا أضع الحقيبة خلف السيارة مائدتها الصغيرة والمقعدين فى كومة أمام المدخل .

قالت عندما تحركت السيارة : مازال الموعد مبكرا . لا أحب الانتظار طويلا فى المطار. فلنتجول قليلا .

– إلى أين تحبين أن نذهب ؟

– إلى أى مكان. أحببت هذه المدينة الصغيرة. قلت لنفسى هنا سأنسى العالم وسينسانى العالم..

لكنها غيرت رأيها فورا : لا . لاداعى لذلك. لا أحب أن تكون آخر مرة أراها فى هذا الجو الغائم. هى مدينة حزينة جدا تحت هذا السحاب.

– هناك غابة جميلة فى طريق المطار إن أحببت أن نبقى هناك لحظة..

– لا. ولا حتى هذا . عندما تأتى النهاية يحسن ألا تطيل فيها.

– كما تشائين .

لزمت الصمت .. لم يعد عندى شيء أقوله. لم أعد أنا . رأيت نفسى، مثلها، منذ مدة أتلاشى. لم تغب عنى أنا أيضا الفرحة وحدها، بل غاب حتى الحزن والألم.

أسندت بريجيت رأسها إلى مقعد السيارة وقالت:

– إذن فأين السلام يا صديقى؟

فقلت دون وعى – أن ننام، أن نحلم.

اعتدلت فى مقعدها فجأة وهتفت : أنت قلت!

– ماذا قلت؟

– أن ننام، أن نحلم!.. ألم تكن تسأل عن طريقة؟.. ها أنت أجبت! وبالنوم ننهى ضنى القلب وآلاف الفواجع التى هيىء لها الجسد . ذلك هو الكدح الذى بقلبك تبتغيه! ألم يكن هذا هو الشعر الذى تفكر فيه؟

- نعم.

- تلك هى السكينة التامة!.. أنت قلت فلا تتردد. لأنه فى الواقع ياصديقى، حتى بدون هذا الشعر من يحتمل هذه الدنيا؟.. من يحتمل غطرسة المتكبرين والطغاة والأمراء وآلام الحب المخذول والانتظار الطويل واستحالة العدل وهزيمة الرقة أمام الوحشية وكل تلك الأنانية وكل ذلك الظلم من يحتمل هذه الدنيا؟ أنت قلت!

نزعت حزام الأمان لمقعدها فجأة وهى تكرر فى لهاث تقريبا:

- نعم، نعم، أن ننام، أن نموت. ثم إنه ليس من الضرورى أن يكون ذلك بالخنجر!.. ألست معى؟

ثم مدت يدها، ثم مالت بجسمها كله نحوى وراحت تدفع مقود السيارة إلى حافة الطريق المرتفع وأنا أصرخ : لا!.. لا يا بريجيت.. ليس الآن.. ليس هكذا.. لا!

وكانت هى تتابع باقتناع كامل - لماذا لا؟ لماذا ياصديقى؟.. هل تستمتع بالفعل بهذه الدنيا الكلبة؟ ما الذى تريده منها؟

وكانت تضغط بقدمها على قدمى وأنا أحاول أن أدفعها بعيدا عنى بكتفى أحاول أن أدفعها بعيدا بجسمى وكانت السيارة تندفع إلى أن وصلت بالفعل إلى طرف الطريق فجذبت فرامل اليد قبل أن تنزلق من الحافة.

وتوقفت السيارة فى صرير عنيف وهى ترتج.

وكنت أنحنى على مقود السيارة وأنا ألهث وسمعتها تقول مبهورة الأنفاس بصوت خافت:

- أرأيت؟. أنت لست مستعدا بعد!



رفضت بريجيت أن أودعها .. أخذت حقيبتها أمام المطار ورجتنى ألا أدخل معها. قالت أكره مواقف الوداع.

قبلتنى فى وجنتى قبلة خاطفة. قبلة صديق لصديق عابر قبل أن تستدير وتتجه إلى الباب الزجاجى بسرعة . لم أكن أستطيع حتى أن أبقى لحظة لأراقبها قبل أن تختفى.. كانت أبواق السيارات أمام المطار تستحثنى أن أخلى الطريق .

انتهت وانتهى كل شىء .

ولكن بينما أقود السيارة قلت هناك شىء أخير يجب مع ذلك أن أفعله فى هذه المدينة . حساب أخير يجب أن أصفيه.



عبرت الجسر الطويل ودخلت ضفة النهر الأخرى.

نادرا ما جئت هذاالحى وقليلا ما أعرفه . صعدت فى الطرق الجبلية ولكن كل الشوارع كانت تتقاطع ، وكانت كلها متشابهة.

أوقفت السيارة ورحت أراجع الخريطة التى معى وأفتش عن موضع العنوان الذى حصلت عليه.

تلفت حولى ولم أجد أحدا أسأله. لا يتجول الناس على أقدامهم فى هذا الحى. لم يكن هناك شىء غير أسوار القصور العالية تطل منها قمم أشجار التنوب المخروطية الخضراء.

وكان غيم وكانت عتمة.

تركت السيارة ودونت اسم الشارع الذى وقفت فيه . وأخذت معى الخريطة وقلت سأبدأ من هذه النقطة.

سرت والخريطة فى يدى، وكان الطريق يصعد فى الجبل، فبدأت ألهث وأبطأت خطواتى.

شعرت بالتعب فجلست على جذع شجرة مقطوع وكنت من مكانى أطل على المدينة فى ضفة النهر الأخرى. ولكن ضبابا كثيفا كان يغلف المدينة فبدت مبانيها كتلا رمادية متباعدة. بدت شبحا لمدينة. وجاءتنى وأنا أنظر إلى المدينة تلك العبارة التى تطاردنى منذ مدة: سيمر الزمن وسيأتى بعدنا من يعرف لم تعذبنا .

سينسون وجوهنا وأصواتنا ولكنهم لن ينسوا عذابنا. لا . لم يقل تشيخوف ذلك. قال عبارة أجمل بكثير كان فيها حديث عن السعادة . ولكن هل سيذكرنا حقيقة أحد؟.. هل ستذكرنى هنادى؟.. هل سيلد عذابنا تلك السعادة؟.. بأية معجزة؟

قمت بعد أن استرحت قليلا.

صعود آخر.

لافتات صغيرة بأسماء الشوارع، أرقام الفيلات والقصور، ولكن لا توجد لافتات بأسماء ساكنيها .

عطر زهور نفَّاذ وأشجار عطرها يكاد يخدرنى.

كنت مخدرا بدونها. كان رأسى يدور من جهد الصعود المستمر.

ولكن، بناء على الخريطة، هذا هو المكان.. قالت هو قصر كبير، لكنى لا أرى شيئا غير السور العالى والبوابة الحديدية ومن ورائها الأشجار يخترقها ممر مستقيم أمام البوابة، لكنه يدور ويختفى بعدها.

لا أرى شـــيئا من ذلك القصر. ولكن هناك على الأقل لافتة بجوار البوابة الحديدية. نعم.

أحاول أن أقرأ. كانت الحروف كبيرة ولكنى مع ذلك لم أستطع أن أقرأ بسهولة من الزغللة فى العينين وعتمة الضباب. اقتربت كثيرا. لم يكن هناك أيضا اسم لساكن القصر. كانت العبارة تقول: احترس . كلاب شرسة! وتحتها اضغط على الجرس، وتكلم فى البوق. عندما ضغطت على الجرس جاء نى بعد فترة عبر مكبر الصوت صوت عميق هندى اللكنة.

– من هناك؟

– أنا .. أريد أن أقابل الأمير حامد.

– هل هناك موعد؟

ترددت لحظة ثم قلت: نعم.

– انتظر لحظة من فضلك.

غاب طويلا ثم جاء صوت ليندا:

– هل أنت متأكد أن هناك موعدا مع سمو الأمير؟

– قال لي إن بيته هو بيتي. قال أستطيع أن آتي في أي وقت.

– انتظر لحظة من فضلك.

غابت أيضا فترة طويلة. لم يرجع صوتها، بل جاء الصوت الهندي:

– سمو الأمير يقول إنه ليس هناك موعد. وإنه لا يريد أن يستقبل أحدا اليوم.

– أبلغه مع ذلك أن هناك شيئا مهما أريد أن أقوله له. شيئا يهم الأمير كثيرا.

في هذه المرة رجع بعد الصمت الطويل صوت ليندا. بدا كأنها تقرأ من ورقة مكتوبة لأنها رددت بصوت رتيب:

– سموه يكرر أنه لا يريد أن يقابل أحدا. سموه لا يريد أن يسمع منك شيئاً. يقول إنك تضايقه وهو لا يحب من يضايقه. سموه يسأل: لم لا ترحل من هنا بسرعة مثلما رحلت صديقتك؟

– إذن قولي له إنني ..

ولكن الصوت انقطع من الهاتف وبدأ النباح فجأة. نباح شرس كعواء متصل يقترب من البوابة، ثم حشد من كلاب ناصعة البياض، طويلة السيقان، طويلة الأنياب، تصك بمخالبها البوابة الحديدية وتكشف أنيابها وهي تزمجر وتحدجني بعيون نارية شريرة وهي تتواثب وتعوى.

ابتعدت عن البوابة ولكن الزمجرة الوحشية كانت تتصاعد وتتصاعد، يجاريها نباح من القصور الأخرى. تعاونت كل كلاب الحي لطرد الغريب ولاحقني نباحها وأنا أهبط من طريق لأصعد في طريق آخر.

ها هو الأمر إذن. لا شيء غير نباح الكلاب. لن تصفى حسابك مع الأمير، لن تصفى الحساب مع الكلاب. لن تصفيه مع الحجّاب . نعم، ياصديقي أفهم أن

يردّنى الحجاب ولكن ماذا عن الكلاب؟ لن تصفى مع العالم أى حساب. كل شىء ينتهى. أنت وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت. أنت وإبراهيم وبريجيت وإيلين ويوسف. أنت وخالد ومنار. كل شىء ينتهى. فماذا تنتظر؟ لماذا لم تطع بريجيت عندما حانت اللحظة؟.. أن تكونا معا إلى الأبد بعيدا عن العالم، بعيدا عن الأمير، بعيدا عن الحرب التى لا تستطيع أن توقفها، عن الدماء التى لم ترقها ولكنك تغوص فيها. لماذا لم تواتك الشجاعة؟.. لماذا لم تكن مستعدا؟..

مرة أخرى تلك الشوارع التى تصعد وتهبط. مرة أخرى أفقد الطريق . فقدته من زمن طويل. أمسكت الخريطة ورفعتها. قربتها إلى عينى . كانت خطوطاً متعرجة تثقبها نقط سوداء. لم أر شيئا .

الضباب الآن ستار يحجب كل شىء . ستار من نقط ندية منمنمة تتموج ومن خلفها تترجرج القصور والأشجار.

أهبط، لا أستطيع الآن أن أصعد. إنس الخريطة وانس السيارة واتبع فقط كل الطرق التى تهبط فى اتجاه النهر. إهبط باستمرار!.. أخيرا أصل حديقة صغيرة على شاطىء النهر. حديقة مهجورة وسط الضباب والبرد . ولكنى أجلس لاهثا. النهر أمامى ممر ساكن من الرصاص والمدينة كتلة رمادية من نقط رجراجة..

لكن صوتا يخترق الصمت، صوتا مقرورا من البرد ... شبح يتدثر بمعطف يجلس إلى جوارى ويسألنى بصوت مرتعش:

– هل تريد؟

– نعم أريد.

– ماذا تريد؟

– أن أفهم . من أكثر من خمسين سنة أحاول أن أفهم. حاول الطفل وحاول الرجل ورجع الطفل ومات الرجل وكله دون فائدة . مائة سنة لا تكفى.

– تريد بخمسين أو تريد بمائة. أسرع!.. الشرطة بعيدا ليست...

اتضحت اللكنة الأجنبية واللغة المكسورة وقلت لنفسى أنا أعرف هذا الصوت،

أنا سمعت هذا الصوت من قبل.

- أسرع، حشيش مغربى أو أفغانى؟.. بخمسين أو بمائة؟.. أسرع الشرطة بعيدا ليست ، الصنف معى. تعال معى...

أدرت وجهى ولم أره. كان الوجه يترجرج أيضا ... رأيت وجها من نقط منمنمة له حاجبان كثان تحت طاقية الرأس فقلت بصوت ضعيف - بيدرو..!

ولكن هل هو بيدرو بالفعل؟

قبل أن أكمل الاسم كان قد قام وجرى ، اختفى.

هتفت فخرج صوتى ضعيفا : انتظر!.. انتظر!.

رجع مرة أخرى.

رجع بخطوات بطيئة . وكنت أنا أنزلق على المقعد . رغبتى لا تقاوم فى أن أتمدد عليه .

رفعت عينى ولكنه لم يكن بيدرو. كان شرطيا، وكان يتحول هو أيضا إلى نقط منمنمة، راحت تتموج، وراحت تصغر وراحت تغيب.

وكان الصوت يأتى من بعيد.. ياسيد ياسيد .. هل أنت بخير؟

لم أكن متعبا . كنت أنزلق فى بحر هادىء .. تحملنى على ظهرى موجة ناعمة وصوت ناى عذب.

وقلت لنفسى: أهذه هى النهاية؟ ما أجملها! وكان الصوت يأتى من بعيد .

كان الصوت يكرر ياسيد!.. يا سيد!.. ولكنه راح يخفت وراح صوت الناى يعلو.

وكانت الموجة تحملنى بعيدا .

تترجرج فى بطء وتهدهدنى.. والناى يصحبنى بنغمته الشجية الطويلة إلى السلام وإلى السكينة .

تمــــت

بهاء طاهر

چنيف - ١٩٩٥

كلمة ختامية

●●هذه رواية ، أساسها الخيال . ولكن هناك مع ذلك أشياء حقيقية.

في الفصل الأول : قصة تعذيب بيدرو ايبانيز ومصرع شقيقه فريدى فى شيلى. الاسمان حقيقيان والوقائع حقيقية مع شىء من التصرف .

فى الفصل السادس : شهادة الممرضة النرويجية عما حدث فى عين الحلوة شهادة حقيقية ، وهى مزيج من أقوال منشورة وحوار شخصى أجراه المؤلف معها . وقد غيرت اسمها الحقيقى.

فى الفصل العاشر : المقال المنسوب الى برنار ، الشخصية الروائية . نص لمقال حقيقى.

وفى الفصل الأخير : شهادة الصحفى الأمريكى رالف حقيقية ، الاسم حقيقى ، والوقائع حقيقية.

هذا ، ودم الشهداء.

بهاء طاهر